اقرأ

محمد بن عبد الله

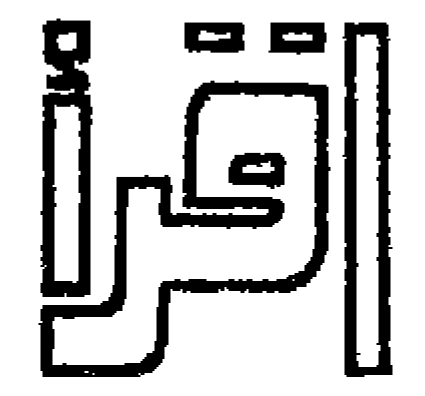
صلى الله عليه وسلم

توجيهاته وأوامره فى ساحات القتال

السيد فرج



دار المعارف



[٥٢١]



السيد فرج

محمد بن عبد الله
صلى الله عليه وسلم

توجيهاته وأوامره في ساحات القتال



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الإهـداء

إلى روح الإمام القدوة والعالم الأسوة
المرحوم الشيخ محمد محمد المدنى
طيب الله ثراه ووفقنا لتتبع خطاه

السيد رزق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أُذِن للذين يُقاتلُون بأنهم ظُلِموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلّا أن يقولوا ربُّنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهُدِّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيرًا ولينصُرَنّ الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾

«٣٩ – ٤٠ – الحج»

﴿وأَعِدُّوا لهم ما استطعتُم من قوّةٍ ومِنْ رِبَاطِ الخيْل تُرهِبون به عدوّ الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون * وإن جَنَحُوا للسَّلم فاجنحْ لها وتوكلْ على الله إنّه هو السميعُ العليمُ﴾

«٦٠ – ٦١ – الأنفال»

الإسلام دين سلام

وقد تلقى نبى الإسلام صلوات الله وسلامه عليه أمر ربه ليدعو الناس كافة لدين الله وأن تكون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، حيث لا إكراه فى الدين.

ولكن قريشًا آذت الرسول وأهله وصحبه وأسرفت فى غيّها وعدوانها حتى أذن الله للمؤمنين بقتال الذين يقاتلونهم:

﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا
إن الله لا يحب المعتدين﴾

وهكذا تقرر أن يكون مبدأ الحروب الإسلامية حروب دفاع واتقاء.

وكان على «محمد» قائد المسلمين أن يبادر بأخذ أهبته وتجهيز رجاله ووضع خططه وإصدار توجيهاته وأوامر عملياته منفذًا قوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾

الرسول القائد

تلقى نبيّ الإسلام صلوات الله عليه، أمر ربّه ليدعو الناس كافة لعبادة الله وللأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد قوبلت الدعوة من أهل قريش بالصد والعدوان إلا من أضاء الله بصيرته وشرح صدره للإسلام.

ولقد أسرف المشركون فى إيذاء المسلمين وتعذيبهم واشتدوا فى مصادرة أرزاقهم والعدوان على أهلهم وديارهم، حتى أذن الله لعباده المتقين الصابرين بقتال الذين يقاتلونهم.

وبناءً على هذا الإذن الكريم، فقد كان على المسلمين أن يتجهزوا للقتال، وأن يستعدوا لرد العدوان، وكان على محمد ﷺ أن يتولى جمع شملهم، وتنظيم صفوفهم، وتوضيح ما خفى عنهم، وتعبئة قواهم المادية والمعنوية لدرء الشر المبيت لهم، وردع العدوان الذى أقبل بخيله ورجله.

كان محمدًا ﷺ أول قائد فى الإسلام.

النبوة كانت أولًا، ثم القيادة.

إن محمدًا ﷺ لم ينشأ قائدًا، ولم يتعلم الحرب فى مدرسة، ولم يسع إلى القيادة، راغبًا أو فخورًا، بل مستجيبًا لأمر ربه، محققًا لغاية عليا هى دفع الأذى الذى حاق بأهله وصحبه، وحتى يردع العدوان الذى يشنه أعداء الإسلام بلا رحمة ولا هوادة.

فالقيادة والحرب عند محمد ﷺ لم يكونا عن هواية أو احتراف، أى لا رغبة شخصية فى خوض الحرب، ولا حبًا للغلبة والنصر.. وإنما هى مشيئة عليا أوجبتها مقتضيات الحفاظ على الدعوة، وحماية المؤمنين الذين يتعرضون لعدوان المشركين.

وهو - كقائد - لم يبدأ أحدًا بالقتال، ولم يحارب إلا للدفاع والاتقاء، بعد أن استوفى المحاولات السلمية والمساعى الحميدة لاجتناب سفك الدماء.

ذلك أن الإسلام دين سلام.

وقد أمر الله رسوله أن يدعو الناس لعبادة الله، وأن تكون سبيله إلى ذلك الحكمة والموعظة الحسنة، وليس العنف والإكراه:

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة
وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضلّ
عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾

«١٢٥ - النحل»

وتلبية لهذه الدعوة، فإن محمدًا ﷺ عندما تلقى الوحى الإلهى وتسرف بالنبوة السنية، فقد أسرَّ بها إلى عدد قليل من أهله وصحابته، واستمر فى الدعوة سرًّا حتى أمره الله أن يظهرها:

﴿وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون﴾

«٢١٤ - ٢١٦ الشعراء»

﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾

«٢٥٦ - البقرة»

كانت دعوة سلام، ولكن قريشًا استقبلتها بالإنكار والتحدى، وتعرض المسلمون لشتى أنواع الإهانة والتعذيب حتى هاجر بعضهم إلى الحبشة فرارًا بدينهم، ثم هاجر النبى وصحابته إلى يثرب.. وهكذا لم يقابل العدوان بمثله ولم يحض أتباعه على القتال لأنه كان ينشد الهداية لقومه جميعًا، على حين كانت قريش تجدّ فى إيذاء المسلمين.. فالنبى لم يلجأ إلى القوة بادئًا، ولم يتخذ العنف سبيلًا حتى إن أنصاره فى المدينة ناشدوه أن يأذن لهم فى الرد على العدوان، وقال قائلهم:

«والذى بعثك بالحق إن شئت لنميلنّ على أهل منى غدًا بأسيافنا»

قال عليه الصلاة والسلام:

. «لم نؤمر بذلك»

.. وفى المدينة المنورة انتهى الترحال وهدأ البال، وانتشرت الدعوة وأصبح المسلمون كثرة وقوة، وكان من المرتقب أن يأخذوا فى الثأر من قريش، وأن يقيموا الحد على الكفرة والمعتدين.. لكن رسول الله كان معرضًا عن الانتقام مبشرًا بالسلام.

وعندما توسعت قريش فى عدوانها، واشتد الظلم والإيذاء، وتوالى تأليب القبائل وتصعيد العدوان، أذن الله للمؤمنين فى قتال الذين يقاتلونهم:

﴿أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربّنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾

«٣٩، ٤٠ - الحج»

ثم وضع القرآن الكريم الحد الفاصل بين الحرب المشروعة والحرب غير المشروعة:

﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾

«١٩٠ - البقرة»

فالإذن الذى تلقاه الرسول القائد إنما أعطى لغرض محدد هو دفع الظلم ورد العدوان.. أى: لا تعتدوا.

وصدع المسلمون بالأمر الكريم واتخذوا قرارهم بمسالمة من يسالمهم ومحاربة من يعتدى عليهم.. وكانت كل طلعات الجهاد وسرايا الوقاية والدفاع تؤكد ذلك المبدأ السليم الذى عمل به المسلمون فى صد قريش، ثم دحر اليهود ثم وقف عدوان الفرس والروم.

ولما كان حامل الرسالة وحافظ الأمانة هو قائد المسلمين فقد نشأت قيادته فى إطار المبادئ التى جاء بها القرآن الكريم:

* ﴿لا إكراه فى الدين﴾
* ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾
* ﴿ولا تعتدوا﴾
* ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾
* ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾
* ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾
* ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾
* ﴿فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين﴾.
* ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفّا كأنهم بنيان مرصوص﴾.

* ﴿يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة﴾.

ومجمل القول فى حروب الإسلام، أنها لم تكن حروب هجوم واعتداء وإنما حروب دفاع واتقاء، وأن النبى القائد لم يفاتح أحدًا بالعداء ولم يبعث سراياه، ولم يباشر قيادته إلا لصد أعدائه، وردع الشر قبل استفحاله.

بهذا المنطق ومن هذا المنطلق أخذ النبى القائد يحشد رجاله وينظم صفوفهم ويعبئ قواهم ويعدهم للجهاد إعدادًا رشيدًا بالسيف والروح لكى يحسنوا الدفاع عن دينهم، ويحرزوا الغلبة على عدوهم، ويقاتلوا المشركين قتالاً عنيفًا باسلا حتى النصر أو الموت.

وعندما يجيء بنا الحديث إلى «محمد القائد»، فلا بد لنا أن نزن الأمور بميزان القيادة الصحيحة، وأن نختبر صفات القائد فى محمد ﷺ كما اتفق عليها فى الماضى والحاضر، ومن غير تأثر بصفات وخصائص وملكات النبوة الجليلة.. أى أننا نأخذ بالنظرة العلمية المحايدة، وبمقياس النبوغ العسكرى الذى لا يخضع إلا للحقائق والفعال.. وهذا - بلا ريب - مطلب صعب ولكنه ضرورى ولا مندوحة عنه، حتى يكون الحكم خالصًا لوجه الله، والشهادة بينة أمام الناس.

* فما هى خصائص وميزات القائد ﷺ ؟
* وما كان مفهومه للحرب وأغراضه منها؟

❊ وما قدر معرفته بمبادئ الحرب وأصول القتال؟

❊ وما مدى استيعابه وممارسته لمسئوليات القيادة العليا؟

❊ وكيف كانت صلته بمعاونيه وجنوده؟

❊ وكيف كان يصدر تعليماته وأوامر عملياته؟

❊ وماذا كانت نتائج المعارك التى قادها، والحروب التى خاضها؟

❊ .. وأخيرًا.. ما الذى آل إليه حال جيشه.. من بعده!؟

ذلك لكى نحيط بجميع مبادئ القيادة - كما هى معروفة على الزمن، ولنتعرف إلى جملة ميزات وخصائص «محمد القائد ﷺ».

القيادة والقادة
بين ماض وحاضر

ترى.. هل اختلفت مبادئ القيادة وخصائص القائد فى الزمن الحاضر، عما كانت عليه فيما مضى من الزمن!؟

سؤال قد يبدو ساذجًا ومثيرًا للدهشة والعجب، كيف لا يكون اختلاف وتطور وانقلاب فى شأن من شئون الدنيا والناس. وهل يمكن أن نسمى ما جرى فى الماضى قيادة وقادة، إذا نظرنا إلى ما يجرى الآن من حروب عظمى يتدفق على ساحتها ملايين البشر؟!

ولكن مىل هذا الرد المتعجل، ينطوى على إغفال للحقائق وأخذ للأمور بظواهرها. وإذا ما رجعنا إلى المراجع النبت وأقوال المحققين الثقات، من المؤرخين ورجال الجندية. وروواد الاستراتيچية، فسوف نعلم ما كان ينبغى علينا أن نعلمه، وهو أن مفهوم القيادة ثابت لا يتغير، وأن مبادئ الحرب لم يطرأ عليها تغيير منذ القدم، وأن

خصائص القيادة التى لا غنى لقائد عنها لم تتغير إلا تغيرًا ظاهريًا، استوجبته ظروف الحروب الألكترونية.. أما فكريًا ومعنويًّا فالقائد العظيم هو هو.. فى الماضى وفى الحاضر.. ومقياس البطولة العسكرية مقياس ثابت بصفات وخصائص محتومة.

إنما الذى تغير هو عدد المقاتلين، وقد ازداد تباعًا من العشرات إلى المئات ثم الآلاف.. والآن أصبحت القوات المشتركة فى الحروب الكونية تعد بعشرات الملايين.

والذى تغير أيضًا هو أسلحة القتال.. من السيف والسهم والحربة، إلى البندقية والرشاش والمدفع.. إلى القنابل والصواريخ والأسلحة النووية فى عالمنا الحاضر المهدد بالإبادة والدمار.

وكذلك تغيرت مركبات الحرب، من الجمال والخيل والفيلة.. إلى العربات والدبابات والطائرات.. إلى قاذفات القنابل وعابرات المحيطات والغواصات ذات الحمولات النووية.

ولكنك إذا رجعت إلى كتب الاستراتيجية، ونظريات القتال، ومبادئ الحرب، وخصائص القيادة، سوف لا تجد خلافًا بين العارفين ببواطن هذه الأمور، وإنما اتفاقًا على أن المبادئ لا تختلف، والمؤهلات ثابتة لم تتغير، سواء كان ذلك فى عهد اليونان والرومان، والفراعنة، قبل آلاف السنين، أو فى إبان القرون الوسطى، أو العصر الحديث.

يكفى أننا فى قرابة ختام القرن العشرين نعرف من أحد ثقات

القيادة والحرب - الفيلد مارشال أرشيبلد ويفل - أنه راجع موسوعات الحروب قديمًا وحديثًا، واطلع على مواصفات عديدة للقيادة، فوجد أنه لم يجد تحقيقًا كاملًا، ووصفًا أكثر صحة وأوضح بيانًا مما جادت به قريحة سقراط الفيلسوف اليونانى (٤٦٩ - ٣٩٩ ق. م.)

أى أن ما قاله سقراط قبل أكثر من ألفى سنة هو أصدق ما قيل فى جميع صفات وخصائص القائد العظيم. وبحكم وشهادة قائد اشتهر فى الحرب العالمية الثانية، وله مكانة أدبية معروفة.

ماذا قال سقراط؟

«يجب أن يعرف القائد كيف يعطى جنوده تعييناتهم وأى مؤن أخرى لازمة للحرب.

يجب أن تكون لديه ملكة وضع الخطط وقدرة عملية لتنفيذها.

يجب أن يكون دقيقًا حمولاً لماحًا، طيبًا وقاسيًا، بسيطًا [illegible]، مخادعًا ويقظًا، كريمًا وبخيلاً، متعجلا ومتمهلًا.

هذه وغيرها من الصفات - طبيعية ومكتسبة - يجب أن يتحلى بها القائد.. وعليه أن يكون عارفًا بمهنته ومتطلباتها، فإن جنودًا يسافرون بغير نظام لا يمكن أن نسميهم جيشًا، مثل كومة من مواد البناء

لا يمكن أن نعتبرها بيتاً منيفاً».

ننتقل من هذا الوصف المحكم، إلى ما أجمعت عليه مراجع كثيرة تقول إن خير من وضع الوصف الصحيح للقائد الذى يمكن أن نطلق عليه «القائد العظيم» هو ما قاله الحكيم الصينى زاما:

«إنك تستحق لقب القائد العظيم إذا:

١ - إذا صففت قواك بطريقة فنية.

٢ - إذا ركزتها فى مواضع ملائمة.

٣ - إذا دفعتها للقتال فى الوقت المناسب.

٤ - إذا أدرت العمليات بحكمة.

٥ - إذا كافأت قواتك بعد المعركة.

٦ - إذا حافظت على رجالك بعناية.

وهكذا نجد أن المطلوب فى القائد العظيم لا يختلف بين زمن وآخر، ولهذا فإذا عدنا إلى المراجع أو إلى القوائم التى اهتم بوضعها كبار القادة والمؤرخين عن القواد العظام، لا نجد أنهم جميعاً من قواد الحروب الحديثة.

إن قائمة نابليون تضم أسماء:

الإسكندر الأكبر	(المقدونى)
هانيبال	(قرطاجنى)
يوليوس قيصر	(رومانى)
جوستاف أودلف	(السويد)

تورين	(فرنسى)
أوجين	(فرنسى)
فردريك الأكبر	(بروسى)

أما قائمة الناقد العسكرى المعاصر ليدل هارت ففيها أسماء:

سبيو	(رومانى)
بلزاريوس	(يونانى)
جنكز خان	(مغولى)
مارلبورو	(إنجليزى)
شرمان	(أمريكى)
مولتكه	(ألمانى)

وكلهم من بلاد مختلفة، وأزمان متباعدة، مما يؤكد أن صفات القائد العظيم ثابتة منذ القدم.

ليس هذا وحسب، وإنما نقرأ لكبار المؤرخين ومشاهير العسكريين، ما يؤكد هذه الحقيقة، حقيقة أن القيادة لا تتقيد بزمن معين، بمعنى أنه قد تتغير أسلحة القتال وتتنوع مركباته، وتتطور معداته وتزداد قوة نيرانه، لكن صفات القائد قد تحددت واستقرت فى مفهومها الصحيح منذ أن عرفت الحرب، ولهذا فإن القائد العظيم قد ظهر قبل مئات وآلاف السنين، وانتشرت على مدى الزمن أسماء لامعة يحكم لها الآن بوصف «القائد العظيم».

لقد أطلق المؤرخون على فرعون مصر تحوتمس الثالث (١٥٠٤

- ١٤٥٠ ق م.) أنه نابليون الشرق، أى أنه كانت له من الصفات والمؤهلات والأساليب، مثل ما عرف عن نابليون بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١)، والمعروف أن نابليون هو أشهر عبقرية عسكرية فى التاريخ. أما وقد سبقه على خصائصه وفعاله تحوتمس الثالث فإن الفضل يكون للأسبق.

أما القائد المغولى جنكزخان (١١٦٧ - ١٢٢٧) الذى وصف بأنه «وحش ضار قاد وحوشًا ضارية، لم يعهد لها مثيل فى القوة والبأس» فقد أقام بحد سيفه دولة عظمى، تكونت من منغوليا، وشمالى الصين، وتركستان، وأفغانستان، وفارس، والمنطقة الجنوبية من روسيا.. وهو لم يحرز هذه الدولة الشاسعة بالطائرات والدبابات والبوارج.. وإنما بالتطبيق الصحيح لمبادئ الحرب، وبخصائص القائد العظيم فقد كان يعيش بين جنوده كأحدهم، حتى إذا أزفت ساعة حرج وجدوه بين ظهرانيهم يقاسى مثلما يقاسون، فيندفعون إلى القتال والتضحية بقلوب جسورة وعزيمة لا تلين.

لم يكن لدى چنكز خان سوى: الحصان والسيف.. وفن القيادة وبها أصبح واحدًا من قلائل القادة العظام فى التاريخ كله.. حتى قال نابليون بونابرت:

«لم يوفقنى الله مثلما وفق چنكز خان»

وقال جنرال ماك آرثر قائد القوات الأمريكية فى الشرق الأقصى خلال الحرب العالمية الثانية:

«لو محيت جميع أخبار الحروب من صفحات
التاريخ ما عدا أخبار چنكز خان لبقى لرجال الحرب
معين لا ينضب من المعلومات والدروس الحربية»!

وثمة قائد آخر كان قبل ستمائة سنة من أيامنا هذه، يدفع جيوشه فى سهول آسيا فتهتز العروش فى أوربا، ويتلفت ملوكها مذعورين! إنه: تيمورلنك.. أى تيمور الأعرج.. الذى اشتهر بوصف «قاهر العالم»، فقد بدأ بالسيطرة على منطقة تركستان، وغزا فارس وجنوبى روسيا، والهند، وبلاد الكرج وسوريا والعراق وآسيا الصغرى.

لم يكن تيمور ابن ملك، كما كان الإسكندر المقدونى، ولا خريج أكاديمية حربية كنابليون، ولا كان وريث عصبية قبيلة مثل سابقه چنكز خان.. كما أنه لم يجد فى بلده شعبًا موحدًا كالشعب المقدونى أو شعب المغول، أو الشعب الفرنسى.. وإنما هو تيمور الذى جمع الرجال فجعل منهم شعبًا وجيشًا، ثم تحرك بهم كما يفعل القائد القدير، فبسط نفوذه على آسيا وأوربا.. وقد كتب على قبره فى سمرقند:

«هنا يرقد العاهل المعظم، والسلطان الأكبر والجندى
القوى المهيب.. السيد تيمور.. قاهر العالم»

وهكذا صح ما قيل من أن القائد الذى يستطيع قيادة عشرة رجال بطريقة صحيحة، فإنه يستطيع قيادة عشرة آلاف رجل فى

معمعان حرب طاحنة.

أى أن القائد الجيد ليس دائماً خريج أكاديمية حربية عصرية، ولا وريث جيش عرمرم، ولا مدير عمليات دبابات وطائرات وأساطيل، كما أن مقياس القيادة الصحيحة ليس وقفاً على القادة العصريين ولا شأن له بالسابقين، ولن نحسب التفوق لقائد الآلاف والملايين دون قائد العسرات أو المئات.. لكن الحساب الصحيح هو مفهوم القيادة وخصائص القائد.

بعد هذه العجالة التى أعطت عدة أمثلة لعدد من القادة المشاهير، بعضهم قبل «محمد القائد» ﷺ وبعضهم جاء بعده، يثبت أن القائد الجيد هو من توفرت فيه متطلبات القيادة ومن أوتى الصفات التى لا غنى عنها للقيادة الصحيحة.. كذلك يقتضينا هذا البيان أن نتوقف عند ظاهرة شاذة، هى أن الكتب والمراجع التى تعج بها مكتبات العالم، قد خلت من أسماء عربية وكأنما قد خلت الأمة الإسلامية من العبقرية العسكرية، وهى الأمة ذات التاريخ الباهر على مدى أربعة عشر قرناً.. وكأنما لم تكن لنا فى سجلات القيادة والحرب وقائع باهرة، وأيام خالدة، ورجال من الطراز الأول.

أين موسوعة الحرب العربية؟.

أين نشأة جيش المسلمين وأحداث الجهاد العظيم فى شبه الجزيرة العربية؟

أين وقائع الحروب العاتية التى شنها أعداء الإسلام فانقلبت

السهام إلى صدور رماتها، فباءوا بالخذلان والضياع؟

أين منا المخطوطات والمراجع التى سجلها المؤرخون والكتاب، عن الوقائع الباهرة التى تجلت فيها العبقرية العسكرية للرسول الكريم، وخلفائه الراشدين، وقواده البواسل؟

فلتكن هذه ملاحظة للكتاب والناشرين ورجال القوات المسلحة فى شتى الأقطار العربية.. والزاد عندهم قريب ومبهر.. ولعل موسوعة الحرب الإسلامية تجد النور.. أو تطلع علينا بأمجادها.. وإنها لحقيقية تاريخية كبرى، ولكنها ليست بين أيدينا.. برغم أنها من مفاخر هذه الأمة الإسلامية ذات الفضل السابغ على العالمين.

ميزات وخصائص القائد العظيم

اجتهد كثيرون من المؤرخين والكتاب من رجال الحرب والسياسة والاجتماع والأدب، فى مراجعة تاريخ الحروب التى خاضها البشر، ابتداء من معارك العشرات والمئات فى الماضى السحيق، إلى معارك الملايين فى الحروب العالمية الحديثة.. وقد تنوعت نشاطات هؤلاء المؤرخين والكتاب، ومضت إلى نواح فرعية، أى اختصت بموضوعات محددة - من نوعية خاصة - فى مقدمتها موضع القيادة فى أعلى مستوياتها، والقادة العظام الذين دانت لهم الشهرة وواتاهم حظ عظيم.

وقد والت دور النشر على الزمن فى شتى حقب التاريخ وتعدد الدول، على تقديم مؤلفات من جميع اللغات عن القادة المشاهير من عهود مختلفة، وبلدان متعددة، مثل الإسكندر المقدونى، وهانيبال القرطاجنى، ويوليوس قيصر الرومانى، ونابليون بونابرت

قادة المغول جنكز خان وتيمور لنك، صدرت عنهم عشرات ومئات الكتب تضعهم فى مصاف القادة العباقرة وتعدد مناقبهم ومزاياهم وفعالهم الخالدة.

هذا، على حين تناست هذه الدور أو أنسيت تاريخ الجهاد الإسلامى، وعظماء القادة المسلمين، الذين لهم على مر أربعة عشر قرناً صفات باهرة، فى فنون القيادة والحرب.. كما يبدو أننا شغلنا باهتمامات أخرى، وهموم حالت بيننا وبين تاريخنا العظيم وقادتنا الأجلاء.. هل لى أن أقول إن معلومات أبنائنا فى شتى مراحل التعليم العام - وفى جميع أنحاء الوطن العربى الكبير - ما زالت قاصرة بالنسبة لتاريخنا وفتوحنا وقادتنا، بل إن معلومات الكثيرين منا متوفرة عن الإسكندر، ونابليون، وروميل، ومونتجمرى، أكثر مما هو متاح عن سيف الله خالد بن الوليد، والجندى القوى الأمين أبو عُبيدة عامر بن الجراح، والجندى الشاعر الدبلوماسى عمرو ابن العاص، والقائد الأسد سعد بن أبى وقاص.. وغيرهم من القادة الميامين والنوابغ الأفذاذ.

هؤلاء القادة البررة، الذين آمنوا برسالتهم، وأخلصوا لوطنهم، وقادوا جيوشهم بأعدادها المحدودة وأسلحتها المتواضعة عبر مفازات صعبة، وساحات قتال شديدة المسالك، وفى مواجهة جيوش

[illegible] واغتنموا الفرص. فابتكروا وجددوا وتفوقوا.. ورسموا خريطة الوطن العربى الكبير من المحيط إلى الخليج.

وإن كان عدد قليل من المؤرخين والكتاب الأجانب الدائبين على السعى فى المراجع الصحيحة، بنظرة علمية محايدة قد بهرهم التاريخ الإسلامى ووقفوا على القوة المعنوية الهائلة التى قادت إلى تلك الفتوح الباهرة، وما كان لقادة الجيوش الإسلامية من صفات وميزات تضعهم فى مصاف عظماء القادة من التاريخ كله، فضلاً عما سجلوه لنبى الإسلام من مكانة عليا فوق مستوى البشر.

ولما كان موضوعنا الرئيسى، هو عبقرية محمد العسكرية وميزاته وخصائصه كقائد، فقد أصبح لزامًا أن نوضح ماهية النبوغ فى القائد وما كانت عليه قيادة «محمد» من تفوق، وكيف دان له النصر فى كل معترك خاضه، وفى كل قتال اشترك فيه أو أشرف عليه.. وسنرى أنه لم تكن بين صفات القادة العظام فى جميع الأقطار والأزمان إلا تألقت فى شخصية سيدنا محمد القائد وما من أمارة نبوغ وتفوق إلا كان هو وليها وصاحب أسماها معنى وأعلاها قدرًا.

إذن: ما هى ميزات وخصائص القائد العظيم كما حددها وعددها كبار المؤرخين والعسكريين؟ وليكن اختيارنا لعدد من الأسماء اللامعة ذات الشهرة العسكرية، مثل المارشال ويفل، والمارشال

مونتجمرى، والمارشال روميل، وقد كانوا من أبرز قواد الحرب العالمية الثانية.

يقول ويفل:

١ - أهم صفة فى القائد، هى عنايته برجاله، إذ عليه أن يوفر لهم احتياجاتهم الأساسية من المؤن والعتاد.. والراحة.

٢ - أن يكون القائد «متينًا» أى قادرًا على تحمل صدمات الحرب ومفاجآتها «عندما تقرءون التاريخ الحربى، لاحظوا الفشل الذى نتج عن افتقار قائد القوات إلى صفة «المتانة».

٣ - روح المخاطرة، أى الشجاعة وعدم التقيد بنظريات معينة لأن العمل فى الميدان رهن بإقدام القائد وتصرفه المنطوى على شجاعة الفكر والوجدان.

٤ - القائد الذى يمضى وقته مع جنوده، يمارس معيشتهم، ويتفقد أحوالهم ويشعرهم بأنه واحد منهم، «احذر أن تجعل «أركان حربك» يقفون بينك وبين جنودك». من الأفضل أن يمضى القائد بعض وقته مع ضباطه وجنوده بدلاً من أن يقضى معظم وقته فى مكتبه»

«لكل قائد تفكيره الخاص، فالضابط الفرنسى عندما يتحدث إلى رجاله يقول لهم «يا أولادى» ويحدثهم عن مجد فرنسا وتراثها القومى، والضابط الإنجليزى يخاطب رجاله بقوله: «أيها الرجال»

والروسى يقول «أيها الرفاق» والألمانى يصيح بصوت عال: أيها الزملاء الآريون..»

٥ - القدوة الحسنة:

«من واجبات القائد أن يكون عادلاً، وأن يعمل على الترفيه عن جنوده، وبذلك يكسب ثقتهم».

«إن نابليون لم يحصل على مكانته العليا لأنه درس قواعد الاستراتيچية والتكتيك.. ولكن لأنه درس دراسة عميقة: الطبيعة البشرية فى الحرب»

«إن العلاقة بين القادة والجنود لا بد أن تكون قائمة على الثقة»

«مثلما يكون القائد يكون الجنود».

رأى المارشال مونتجمرى:

١ - العامل الإنسانى:

«لكى تقود جيشًا يجب عليك بادئ ذى بدء أن تكون واسع العلم بالطبيعة البشرية، فهذه هى المادة الأساسية التى ينبغى للقائد أن يصل إلى أغوارها ويعمل من منطلقها».

«إذا أنت أهملت العامل الإنسانى فلن تكون قائدًا ناجحًا»

٢ - الثقة:

«إذا اضاع القائد ثقة جنوده به، فقد كتب على نفسه الخسران المبين»

«إن التعريف الصحيح للقيادة هى أنها التصميم على العمل بالروح التى تؤكد ثقة الجنود».

«عندما يكون القائد على طريق أهداف سليمة، وعندما يعطى لجنوده عوامل الغلبة والنصر، فلا شىء يمكن أن يعترض طريقه أو يعرضه للإخفاق».

«لا بد من إذكاء روح القتال العالية فى الجنود، ورفع مستوى ممارستهم وتركيز آمالهم فى النصر.. وهى مقدرة ترجع إلى فهم العامل البشرى، وتأتى من العمل المتواصل، والاتصال الوثيق بالجنود»

«إن القائد الذى لا يهتم بالناحية الإنسانية هو قائد فاشل».

«إن أهم ما يميز القادة العظام، هو إيمان الجنود بالقائد وثقة القائد بنفسه وبجنوده».

٣ - لكى يكسب قائد المعركة، لا بد له من:

* تفهم أصول الحرب.

* الوقوف على عوامل النصر.
* الشجاعة والصلابة.
* التقدير السليم للموقف.

رأى المارشال روميل:

«كن نموذجًا لرجالك فى حياتك الخاصة وفى عملك».

«كن مرنًا وراثقًا».. أى مطمئنا وهادئ الأعصاب، وعلم معاونيك أن يكونوا كذلك.

«حاذر من النزق والحدة، وانفلات الأعصاب وارتفاع الصوت».

«إن القائد الأعلى هو عقل الجيش».

بعد هذه الآراء الجليلة لقواد خاضوا المعارك الشرسة فى أحدث وأقوى الحروب العالمية، وقد درسوا فى أكاديمياتهم العسكرية تاريخ الحروب وميزات وخصائص العظام، وحاولوا التمثل بها أو تطبيق مبادئها فى عملياتهم، يمكن أن نلخص شئون القيادة والقادة فيما يلى:

١ - القائد الجيد هو الذى يعرف: ماذا يريد؟.. يجب أن يكون غرضه واضحًا، وأن يحشد كل قواه لغرضه هذا.

٢ - وهو الذى يجعل رجاله يعيشون فى جو المعركة، فاهمين لأغراضها، متنبهين للموقف جيدًا، ولما يحتمل من تحركات للعدو أو

ميزات يتمتع بها.

٣ - وهو الذى يتيح لرجاله ما لديه من أفكار ومعلومات.

٤ - وهو الذى يرفض المركزية، فيتيح لقواده أن يتصرفوا بحرية فى إطار الخطة العامة.

٥ - وهو الذى يحسن اختيار معاونيه، ويجيد توجيههم ببساطة وعناية.

٦ - وهو الذى يبقى فى خط النار طوال المعركة.

٧ - وهو الذى يتمعن فى فهم أخلاق جنوده، وما يؤثر عليهم من معاملة.

٨ - وهو الذى يعتنى بالضبط والربط أى النظام فيجعله طبيعة فى جنوده.

٩ - وهو الذى يقود رجاله بروح الفريق، فيعملون متآزرين لتحقيق النصر.

١٠ - وهو الذى يشترك مع رجاله فى المواقف الصعبة، ويجدونه بينهم فى ساعات الشدة مقاتلاً ببسالة ومتعرضًا للموت.

مفهوم القيادة.. ومسئولية القائد

القيادة فى أبسط تعريف لها هى:

(قائد) يحرك مجموعة من (الجنود) وفق (نظام) معين، وحسب (خطة) مدروسة، لإحراز (هدف) محدد..

أى أن مشتملات القيادة هى: القائد - الجنود - النظام - الخطة - الهدف.

القائد هو رأس الجيش، والجنود هم الجيش، والنظام هو انضباط الجنود وتدريبهم وصقلهم، والخطة هى الوسيلة للحصول على الهدف، والهدف هو قهر العدو والحصول على ما اقتضاه التحرك.

هذه هى خلاصة لمفهوم القيادة سواء كانت قيادة عشرات أو مئات أو آلاف أو ملايين، وخلاصة مفهوم القيادة على الزمن قديماً وحديثاً، فلم توجد قط جماعة محاربة بغير رئيس، ولم تتحرك حملة دون أن يكون لها غرض، ولا يمكن أن نسمى مجموعة رجال

بلا نظام جيشًا، ولا يشرع جانب فى صراع دون أن تكون له خطة، ومن أجل هدف يسعى إلى بلوغه.

كل هذه المفردات كانت واضحة فى جميع الاشتباكات الحربية، سواء كانت بين قبائل أو إمارات أو بلدان أو دول.. بأى عدد وفى أى زمن.

أما القائد فهو المسئول الأول عن كفاءة القيادة، وسلامة جميع أدواتها من جنود ونظام وخطة وهدف.

وفى الحديث الشريف: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

وبه وضع القائد محمد ﷺ دستور القيادة، وفيها تتضح تمامًا أهمية القيادة ومسئوليتها، فى أى منصب من مناصبها، وبأى مستوى يتولى أمرها.

وقد حملت إلينا صفحات التاريخ تعريفات صحيحة، ودروسًا مؤثرة وتجارب عديدة، عن القيادة الحكيمة والقائد الجيد.. وأجمع القديم والجديد على أن القيادة هبة أو اكتساب، أو هما معًا.. فإن موهبة القيادة قد تكون طبيعية فى إنسان، وقد يكتسبها إنسان آخر بالتجربة، والمرانة، أى أن القيادة مزيج من الفن والعلم وكثيرون من القادة على الزمن لم يتعلموا الحرب فى مدرسة، وإنما كانت طبيعة الجندية كامنة فى نفوسهم والمسئولية عن الرعية تحرك فكرهم وتشعل هممهم.

وكم من قائد تولى مسئولياته بدافع داخلى على الفطرة، فقد

رزق موهبة التأثير والتعامل والإدارة، حتى فى عصر الحروب الحديثة، كان نابليون يُرقى إلى رتب القيادة جنودًا من الصف لا يقرءون ولا يكتبون وإنما لديهم ملكة القيادة طبيعة كامنة، حتى برزت فأثارت التقدير وصار صاحبها قائدًا موفقًا مشهورًا.

وقد كشف تاريخ الحروب عن قادة جاءوا من صفوف الجنود، لم يلتقوا بالثقافة الحربية فى معهد، ولم يتتلمذوا على أساتذة مادة الحرب، وإنما عركتهم ميادين القتال، فظهر نبوغهم الفطرى وخواصهم الطبيعية، وأصبحوا قادة ممتازين كالمارشال روبرتسون، والمارشال وليام سليم وغيرهما ممن أكدوا صحة قول نابليون:

«كل عسكرى يحمل عصا المارشالية فى داخله».

ومسئوليات القيادة واحدة هى إحراز النصر.

ويكون إحراز النصر بتمكن القائد من رجاله، ووضوح عوامل القيادة الصحيحة فى وجدانه، ولكن نبوغ القائد يكون فيما يجىء به من جديد، وما يظهره من براعة أو يحدثه من مفاجأة، مما يجعله مستحقا لصفة القائد العظيم.

ان تعبئة آلاف الجنود ليست هى العامل الأساسى لإحراز النصر أو بلوغ الهدف، وإنما المهم هو القائد الكفء، وكيفما يكون القائد تكون الجنود.

وتاريخ الحرب شاهد على أن القائد العظيم هو الذى يحرز

النصر، فالإسكندر المقدونى هو الذى غزا آسيا، ولم يكن ذلك فى استطاعة الجيش المقدونى بدون الإسكندر، وقيصر، هو الذى أخضع بلاد «الفال» وجعل روما سيدة أوربا، وفردريك الأكبر، هو الذى دافع سبع سنوات عجاف عن بلاده «بروسيا» ضد دول أوربا مجتمعة، وجورج واشنطون، هو الذى حرر أمريكا من الاحتلال البريطانى، بحسن قيادته وثقة رجاله به، وروبرت لى، كان يخوض الحرب الأهلية الأمريكية بقوات قليلة ضد خصوم أقوياء، وكان جنوده يتساقطون من مرارة الهزيمة وآلام الجوع والإعياء.. فما إن يهل عليهم ويروا طلعته حتى يهبوا لمعاودة القتال متناسين متاعبهم غير آبهين لما حاق بهم من هزيمة وهوان.

وقد أثبت تاريخ تلك الحرب أن روبرت لى، كان أعظم قائد من الجانبين أى من الطرفين المتحاربين.

وإذا لم يكن القائد أصيلاً قوى الخلق شديد الحرص على مسئولياته، عارفاً بأنه قائد الجيش وقدوة رجاله، فإنه يكون خائناً يقضى على رجاله بالموت وعلى وطنه بالهزيمة.

ومن النماذج السيئة فى تاريخ القادة الذين اشتهروا فى التاريخ بسوءاتهم، وما جناه طيشهم ونزقهم، القائد الرومانى انطونيو الذى كان له المركز الأفضل والجيش الأقوى، فأضاع بعبثه ومجونه مكانته التى كانت مرموقة، وكفاءته التى كانت مدوية الشهرة قبل انحرافه المشين وسقطته الكبرى.

لقد أضاع القائد أنطونيو سمعته وكرامته ومجد أمته فى سبيل الهوى، ونسى مسئولياته كقائد وشرفه العسكرى ومجد أمته روما، التى كانت أقوى دول العالم فى ذلك الزمن الغابر، حيث أطلق لقلبه العنان فى عشق كليوباترة ملكة مصر (حوالى سنة ٣٧ ق. م).

ولعل أزهى خلاصة نسوقها للقارئ عن هذا النموذج السيئ للقائد الضال الماجن، ما صاغه أمير الشعراء شوقى فى مسرحيته الشعرية «مصرع كليوباترة»:

لما لقيتك فى الجمال وعزه	قهرت قواى الظافرات قواك
فنسيت فى ناديك ذكر وقائعى	وسلوت أيامى بيوم لقاك
قدت الجحافل والبوارج قادرًا	ما لى ضعفت فقادنى جفناك
عاديت قومى فى هواك وأضرمت	روما علىّ الحرب من جراك

كان أنطونيو قائد جيش روما، ومعقد رجاء أمته - بعد مصرع يوليوس قيصر - فلما انحرف عن الطريق السوى وأطلق لمجونه العنان؛ سيرت روما جيشًا بقيادة اكتافيوس وجرت بينهما معركة أكتيوم قريبًا من مدينة الإسكندرية.

ولم يقض أنطونيو ليلة المعركة بين جنوده ولكن أمضاها فى أحضان عشيقته، فلما جاء أحد رجاله يستطلع أمره وجده مخمورًا لا يفيق.. وسأل المحارب الرومانى قائده الأعلى:

أميرى أنطونيو أمن الحق أننا نبيت سكارى والعدو مبيت؟

كان رد القائد الأعلى:

أجل اتبع مولاتى ولا أعصى لها أمرًا

وانطلق الجندى عائدًا إلى قيادة الجيش مهمومًا شقيًا.. وهو يتهدد ويتوعد:

ألا إنه ليل له ما وراءه غرامك حىّ فيه والمجد ميت

والبقية معروفة: الهزيمة، والانتحار، والعار.

كللت نفسى بعار يبقى بقاء الزمان

تلك بعض النماذج التى اشتهرت فى التاريخ تنوعت قيمهم واختلفت مفاهيمهم، فمنهم من أدرك مبادئ القيادة ومسئولياتها، فنفذها بصدق وأمانة، ومنهم من تولى القيادة غير عابئ بشرف الجندية وصدق الوطنية، ومنهم من أرادها لأطماع شخصية وجنوح إلى السيطرة والاستيلاء والولوغ فى الدماء.

وإذا ما كانت القيادة شرف وواجب وطنى ومسئولية عن أرواح الجنود وسلامة البلاد، فلابد من تدارك مفهومها وحمل مسئولياتها.

فماذا كانت حصيلة القائد محمد ﷺ من مفهوم القيادة ومسئولية القائد؟

إنه – قبل أن يكون قائدًا وقبل أن يشترك فى قتال من أى نوع – كان شابًّا مسالمًا أمينًا وبشيرًا بالسلام لنفسه ولغيره، فلم

يعرف عنه أنه اشترك فى عراك، أو أسهم فى مؤامرة، أو نزع إلى عدوان.

وهو عندما دعا قومه لعبادة الله لم يفكر فى الضغط والإملاء والإجبار، وإنما أسر إلى أهله وصحابته بالنبأ العظيم الذى جاء به الوحى الكريم ومضى فى دعوته متواضعًا كتومًا حريصًا مقدرًا جلالها وثقلها.. فلما اشتد الكفار فى إيذائهم المسلمين وتعذيبهم، فقد أذن الله بالقتال.. وهنا وضع محمد ﷺ المبدأ وحدد الهدف صدوعًا للآية الكريمة:

﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾

ومن ثم بدأ القائد الحكيم يأخذ مسئولياته الجليلة وفق أهداف محددة وبعناية بالغة، ويعلم رجاله ويعبيهم ويجهزهم لقتال الذى يأتمرون بهم ويعتدون عليهم.

فهو قائد يعرف جيدًا مفهوم رسالته وحقيقة مسئولياته وهو القائل:

«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»

إنه حامل الرسالة، وحافظ الأمانة، وقائد الجند، وحبيب الأمة الإسلامية الناشئة.. وتلك هى أعلى درجات المسئولية والأمانة التى حملها إنسان، من قبل ومن بعد.

الحرب المشروعة.. وغير المشروعة

ما هذه الحرب التى يشنها الإنسان على أخيه الإنسان؟
هل هى طبيعة دفينة تهفو إلى القتال وسفك الدماء؟
هل هى طمع دنيوى فى المال والأرض والجاه والشهرة؟
هل هى اشتهاء للغلبة والقهر والتحكم؟

أسئلة تراود الخواطر وتتنوع عليها الإجابات والحقيقة المؤكدة هى أنه منذ بدء الخليقة والصراع متواصل الحلقات بين الجماعات وبين القبائل وبين البلدان، ثم جاوز الحدود حتى أصبحت الحرب عالمية تشترك فيها مجموعات من الدول.

أى أن السلام لم يستقر أبدًا وإنما التاريخ هو سلسلة من الحروب تتخللها فترات هدنة لا تلبث حتى يشتعل فتيل جديد.

وتزداد ضراوة الحرب فى جيل بعد جيل، نتيجة تطور الأسلحة واشتداد قوة النيران، فتضاعف عدد القتلى واتسعت الخرائب

وتهدمت مدن بأسرها، وجاوزت الحرب ميادين القتال إلى داخل البلدان، فلم تفرق بين عسكرى ومدنى وامرأة وطفل وشيخ، أى مجزرة بشرية لا تبقى ولا تذر.

وكان الرأى فى الماضى أن انتهاء أى حرب، سيكون انتهاء للحرب كلية بعد ما أحدثت من خرائب، وأزهقت من أرواح.. ولكن لم يتعلم الإنسان قط من المحنة التى ابتلى بها فيعود من جديد إلى محنة أخرى أشد ضراوة وأغزر دمًا.. وإنها لطامة كبرى.

ولكن.. هل كانت الحرب دائمًا بين خصمين يمكر كل منهما بالآخر ويبيت له بليل، ويرنو إلى الفتك به والظفر بما لديه، أو أنها كانت حملات عدوان من الجانب الذى احتواه الشر وأعماه الطمع، فأغار على جار مسالم أو جماعة تنعم بحياة حرة كريمة، وتبتغى الاستقرار والأمن لها ولغيرها.

وإذا كانت الحروب قد أظهرت شخصيات اشتهر أمرها على الزمن بالبراعة فى القيادة والكفاية فى كسب المعارك، فما الذى كان يدفع هؤلاء القادة على خوض الحروب وأعمال لتدمير والقتل، أعنى ماذا كانت الحرب فى عرف هؤلاء القادة العظام؟

يقول المارشال ويفل:

«إذا رجعت إلى تاريخ الحروب ، واستعرضت أسبابها ودوافعها، فسوف تجد أن أكثر الحروب، يرجع إلى عوامل نفسية»

ترى.. ما الذى كان يسيطر على فكر أى قائد من هؤلاء القادة الذين اشتهروا على الزمن، والذين ما زالوا ينعتون بأوصاف المجد والبطولة؟

وليكن الإسكندر المقدونى

تقول المراجع الثبت:

إنه القائد الشاب الذى ولى أمر بلده مقدونيا «اليونان القديمة» على أثر وفاة والدهه. وإذا به يسارع فى إعداد جيش كبير لقهر البلدان المجاورة والاستيلاء على المنطقة كلها من حوله.. ولم يتوقف، وإنما راح يمد بصره إلى قارة أخرى فغزا آسيا، وغنم إمبراطورية فارس، وفتح الهند.

فهو قائد سيطرت عليه روح الغزو، وقادته أطماعه إلى قهر الشعوب وسفك دماء البشر، ليكون له مللك الدنيا وكأنه ظل الله فى أرضه.

وقائد آخر، كانت له وما زالت شهرة داوية، حتى أن المطابع لا تفتأ فى أيامنا هذه من إصدار مؤلفات وتراجم تشيد ببطولته وعبقريته العسكرية.. إنه چنكزخان، وقد كان يقال عنه:

الله فى سمائه وچنكز قُ أرضه.

ظل قوة الله.

خاقان التتار وعاهل الدنيا.

القائد الهمجى البدائى سفاح الشعوب.

وكان چنكزخان يقول:

«إن جماع سرور المرء دحر أعدائه وسوقهم أمامه
واستيلاؤه على ما لديهم»

وكان يقول:

«افطر بعدوك قبل أن يتغدى بك».

وجاء فى وصف جيشه:

«إنهم يطعمون لحم البشر، لهم جماجم من نحاس
وأسنان من صخر وقلوب من فولاذ»

فهل هذه قيادة يؤبه لها.. وهل هذه صفات تستحق التكريم والإشادة فيذكر صاحبها فى التاريخ أحد القادة العظام!؟

وبعده تيمورلنك.

أحد كبار المشاهير فى القيادة والحرب.

قيل عنه فى المراجع المنتشرة فى شتى مكتبات العواصم الكبرى:

«إنه هدم المدن، وحصد الأرواح، وأقام أهرامات
من جماجم خصومه، وأنه اندفع لغزو آسيا وأوربا
كالريح السوداء، وكان التتار الذى يقودهم يجرون
ويقفزون وراء الغذاء والدماء والنساء..»!

فهل هذه شخصية تستأهل التقدير والتذكرة، أو هى فلتة شاذة لا تستحق غير الازدراء واللعنة؟.

نأتى بعده إلى أشهر عبقرية عسكرية: نابليون بونابرت قال عنه

المارشال مونتجمرى إنه قائد «تسيطر عليه الأنانية وتوجهه الأطماع الشخصية».

إن نابليون لم يكتف بأنه أصبح قائدًا لجيش فرنسا، فطمع أن يكون حاكمًا، وسرعان ما وضع التاج بيده على رأسه، وأصبح إمبراطور الفرنسيين.. وتوسعت أطماعه فاحاطت بأوربا كلها، ثم رنا ببصره البعيد إلى الشرق - متمثلًا بالإسكندر المقدونى - لكى يستولى على مصر والشام والهند.. ويصبح إمبراطور العالم.

.. وكانت النتيجة أو المحصلة الأخيرة لأطماعه الهوجاء، أنه أفنى جيشه، وحكم بالخذلان على بلده، ومات منفيًا مسجونًا مقهورًا.

وقائد آخر يضعونه فى قائمة كبار العسكريين.. اسمه: كرمويل، كان ومازال موضع تقدير كثيرين من المؤرخين بسبب قدراته القيادية.. وأنه لم يهزم فى أية معركة خاضها، منذ أن قاد عددًا من الفرسان الذين اجتذبهم إليه، فطوق البرلمان وأعدم ملك إنجلترا، ثم أعلن أول جمهورية إنجليزية.. وعندما انتهت إلى يده ألوية السلطة تحول إلى دكتاتور أكثر من الملك الذى أعدمه لدكتاتوريته!؟

وعندما ووری التراب تنفست إنجلترا الصعداء واستعادت الملكية والبرلمان والديمقراطية والحرية..

تلك بعض نماذج لقادة اشتهر أمرهم فى التاريخ مقرونًا بالمظالم الفادحة، والأطماع الشريرة، والولوغ فى سفك الدماء.

غير أن هناك قادة من طراز آخر وفكر مختلف، فقد أجبروا على الحرب برغم أنوفهم وخاضوا غمارها برغم طبائعهم السلمية وروحهم الإنسانية.. ذلك أنهم ابتلوا بأعداء لبلادهم مغامرين طائشين فكان على هؤلاء القادة العظام أن يركبوا الصعب فى سبيل بلادهم، وأن ينتضوا السلاح لكى يدافعوا عن شعوبهم المستعمرين أو الغزاة، فحاربوا عن عقيدة وحق ومن أجل سلامة بلادهم وحريتها وكرامتها.. ومثل هؤلاء المجاهدين فى سبيل أممهم هم الذين يستحقون شرف التمجيد والتخليد.

من هؤلاء القادة البررة چورچ واشنطون.

كان مزارعًا يعمل فى مزرعته ويجد فى تحسين إنتاجها وتنمية ثمارها، وقد رفض الاتجار فى العبيد، وتزوج مبكرًا وكانت سمعته نقية، وشخصيته جادة محترمة.. ولم يكن يؤذى سمعه أو يعكر صفوه غير تغلغل النفوذ البريطانى فى بلاده الأمريكية.

وعندما أصبح الجهاد المسلح ضرورة حتمية لإجلاء الإنجليز، فقد التقت الأنظار عند الرجل الوطنى الشريف، ليتولى قيادة القوات الأمريكية، وتم تعيين چورچ واشنطون قائدًا عامًّا فى (يونيو ١٧٧٥)، واستمر يقود جيش بلاده طوال سبع سنوات بغير أجر حتى أحرز لها النصر المؤزر والمكانة العليا فى العالم.

أى أن واشنطون لم يكن من هواة الحرب ولا محترفيها، وإنما كان مواطنًا صالحًا معروفًا بحبه لوطنه ومكانته وجرأته فى الحق، وقد

هب من فوره يجمع شمل رجال النضال، وينظم صفوفهم ويشحذ هممهم، ويشاركهم فيما يعانونه من نقص فى السلاح والذخيرة والطعام.. حتى إذا ما انتهت المعارك الضارية بالنصر المبين، وتم جلاء الإنجليز من الولايات المتحدة.. ألقى واشنطون رداء الحرب وسلاحها، وعاد إلى مزرعته يعاود سيرته الأولى فى صفو وسلام.

وعندما احتاجت هذه الدولة الجديدة إلى رئيس يتولى شئونها فى أحرج مراحلها فقد دعى واشنطون ليكون أول رئيس لجمهورية الولايات المتحدة.. ثم تجددت رياسته أربع سنوات أخرى فصدع للأمر، ومارس مهمته بكفاءة نادرة، كرجل سياسى ورئيس واسع الفكر، يتمتع بالتقدير العام والاحترام فى وطنه وفى الأوطان الأخرى.

ومثلما فعل فى فاتحة حياته حين ترك مزرعته إلى ساحة القتال للدفاع عن وطنه وشعبه، فإنه لم يرتض تجديد رياسته لفترة ثالثة مؤثرًا العودة إلى المزرعة تحت ظلال المجد والحرية.

وأصدر الكونجرس الأمريكى قرارًا جديرًا بالذكر والتقدير.

چورچ واشنطون: الأول فى الحرب.

والأول فى السلم.

والأول فى قلوب مواطنيه.

وهكذا القائد العظيم الذى ظفر بحب أمته وتقدير شتى دوائر الحرب والسياسة، ودخل التاريخ من أوسع أبوابه لأنه كان أمينًا فى

خدمة وطنه، حصيفًا فى قيادته لجيشه، بطلاً فى ترسية استقلال بلاده وأمنها وقوتها.. ولهذا ظلت سيرته عاطرة واسمه لامعًا، برغم مرور عشرات السنين.. فهو كجندى لم يختط طريق الحرب رغبة فى الشهرة، أو شهوة للغزو، وإنما كان دافعه الوحيد هو الدفاع عن الوطن»، وهو كسياسى لم يعمل لمجده الشخصى، وإنما أدى لبلاده أجل الخدمات حتى استقرت الأمور، وانتظمت أدوات الحكم.. وعند ذلك وجد أن مهمته قد تمت، فرفض الموافقة على تجديد انتخابه رئيسًا للولايات المتحدة للمرة الثالثة.. وعاد إلى مزرعته قرير العين هادئ النفس راضيًا مرضيًّا.

ولقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن چورچ واشنطون، كان بمثابة نوع جديد من العظمة الإنسانية، وأنه كان نسيج وحده. وبفضله، وبحجر الأساس الذى وضعه لأمته، فقد أصبحت رياسة الولايات المتحدة أهم شىء يشغل بال رجال السياسة والحكم والجماهير.. ليس فى أمريكا وحدها.. ولكن فى العالم كله.

هذا النموذج الأخير هو خير بيان لدوافع القتال، فمن القواد من يحارب للغزو والسيطرة، ومنهم من يحارب لدفع الأذى عن وطنه وشتان بين الغرضين.

أى أن الحرب قد تكون مشروعة، لصد العدو وحماية الاستقلال الوطنى ورد العدو المعتدى، أو تكون حربًا غير مشروعة، إذا أريد بها التوسع والفتوح والاحتلال والغنيمة.

فماذا كانت الحرب بالنسبة لمحمد القائد ﷺ؟.

بدأ محمد ﷺ حياته شابًا ورعًا مستقيمًا، وقد اشتغل بالتجارة فوفق فى أسواقها، واشتهر بصدقه وأمانته، حتى أطلق عليه لقب «الأمين». ثم بعثه الله خاتمًا للنبيين، فحمل الأمانة، وحفظ الرسالة، وبشر بها أهله وصحبه، واستمر يجد فى الدعوة سرًا طوال ثلاث سنوات، حتى أمر الله رسوله أن يظهرها للناس كافة:

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾[1].

فالإسلام دين سلام، ولم يكن فى مضمون الدعوة إلى عبادة الله أية صورة من صور الضغط أو الإملاء، وإنما نزلت الآيات البينات بالهدى والحق.

﴿وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون﴾[2]

﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾[3]

---

(١) ١٢٥ - النحل.

(٢) ٢١٤ - ٢١٦ - الشعراء.

(٣) ٢٥٦ - البقرة.

من هذا يتبين أن محمدًا ﷺ قد لبى نداء ربه وما أوحى إليه:

﴿يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا * وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا* وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلًا كبيرًا﴾[1]

فالرسالة كانت رسالة أمن وسلام وبشرى وفضل كريم.

ولكن قريشًا قابلت الدعوة بالإنكار والتحدى، واشتدت فى إيذاء المسلمين وظلمهم، حتى هاجر بعضهم فرارًا بدينه، ثم هاجر الرسول وصحابته، ولم يرد على العدوان بمثله، وقد كان قادرًا على أن يرد الصاع صاعين، ولكنه «لم يؤمر بذلك».

وعندما اشتد طغيان الكافرين، فقد أذن الله للمؤمنين بقتال الذين يقاتلونهم:

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾[2]

كذلك تحددت مشروعية القتال بما أوردته الآية الكريمة:

﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾[3]

---

(١) ٤٥ - ٤٧ - الأحزاب.

(٢) ٣٩ - الحج.

(٣) ١٩٠ - البقرة.

أى أنه عندما تولى محمد ﷺ قيادة المسلمين، كانت لديه آيات محكمات بأن يقاتل الذين يقاتلونه ولا يعتدى على من لا يبادئه بالعداء.

ولم تخف هذه الحقيقة الناصعة على كثير من المؤرخين الذين تحققوا من أن الإسلام لم ينتشر بالسيف، وأجهضوا ادعاءات وافتراءات الذين قالوا إن الإسلام أجبر الناس على قبول الدعوة بمقتضى القوة ومنطق السيف.

بل إنه عندما أصبح المؤمنون على ثقة من كثرتهم وقوتهم، فإنهم لم يعمدوا إلى الثأر ولم يبادروا بالاندفاع إلى الانتقام، حتى توسعت قريش فى عدوانها، وأسرفت فى طغيانها.

إن محمدًا القائد ﷺ لم يفاتح أحدًا بالعداء، ولم يحارب قط إلا حروب دفاع واتقاء، ولقد كانت حروب الإسلام ردًّا على تهجمات المشركين وعدوانهم المتواصل، فهم لم يحاربوا إلا من أراد صدهم عن سبيل الله، وآذاهم وظلمهم.

وهذه هى الحرب المشروعة.

ولله در الشاعر شوقى الذى جاء بالمعنى الصحيح للحرب المشروعة وغير المشروعة فى «الهمزية النبوية»:

الحرب فى حق لديك شريعة ... ومن السموم الناقعات دواء

والحرب من شرف الشعوب فإن بغوا ... فالمجد مما يدعون براء

والحرب يبعثها القوى تجبرًا ... وينوء تحت بلائها الضعفاء

كم من غـزاة للرسـول كـريمـة فيهـــا رضى للحـق أو إعـــلاء

لقد كانت خطط وأوامر محمد ﷺ العسكرية، لا تعدو الغرض المشروع. وهو وقف اعتداءات قريش، وكسر شوكتهـا وإضاعـة هيبتها، وردع محاولاتها لتهديد أهله وصحبه وإيذائهم وإخراجهم من ديارهم، ثم حمل على اليهود الذين نقضوا العهد وحاربوا المسلمين بعد غزوة بدر، كذلك أوقع الهزيمة ببنى غطفان لما علمه من تآمرهم للهجوم على المدينة.. وهكـذا كانت كـل حملاتـه من أجل وقف الإغـارات، وردع المؤامرات قبـل استفحالهـا.. فلم يكن قـائـدًا يستهدف الغزو، ويرنو إلى السيطرة والإخضاع، وإنما أراد السلام والحرية.. وأن تكون كلمة الله هى العليا.

التوجيهات وأوامر العمليات

إذا كان فى مقدمة مسئوليات القائد هو تجهيز رجاله لقتال الذين يقاتلونهم، فقد أصبح مسئولاً عنهم مسئولية كاملة، مسئولاً عن إمدادهم بالمعلومات وتدريبهم على القتال وتوزيعهم على الأعمال التى تناسب استعداد كل منهم وتزويدهم بالأسلحة وتشجيعهم وشحذ معنوياتهم وإحاطتهم بمعلومات عن أعدائهم ليكونوا على بينة مما سوف يواجههم حتى يأخذوا أهبتهم.. ثم إنه يضعهم فى التشكيل المناسب للعمليات المرتقبة، ويضع كل جماعة فى موضعها، ويوضح لها دورها.. وفى الجملة يجهز جيشه للقتال ويعده للنصر.

تلك هى طبيعة عمل القائد، فهو يعطى التوجيهات بعضها للقواد الفرعيين وبعضها لجماعة معينة، وأكثرها لجميع الجنود كلما كان ذلك مستطاعًا، وكذلك فإنه قبل بدء المعركة يصدر أمر

العمليات بخطة القتال من بدء المعركة حتى نهايتها.

فالتوجيهات وأوامر العمليات من البديهات والأوليات التى يتولاها القائد، تتساوى مسئولياتها من معارك الجماعات الصغيرة إلى الجيوش المحدودة العدد، إلى القوات المسلحة فى الحروب الدولية، إلى القوات المتحالفة فى الحروب العالمية.

كان رئيس القبيلة يجمع أفراد قبيلته، ويحدثهم عن القبيلة المعادية، ويحرضهم على القتال، وينظم صفوفهم، ويوزع عليهم الأسلحة المتاحة، ويتشاور معهم كيف يكون التقدم؟ ومن يكون فى المقدمة؟ ثم يصدر أمرًا كليًّاشاملاً.. فلما يستعر القتال، فإنه يتنقل بين المراكز المختلفة ويوالى إعطاء أوامره وتوجيهاته حتى تنتهى المعركة.

وعندما اتسعت ميادين القتال، وازداد عدد المحاربين، ولم يعد فى مقدور القائد أن يحدث جميع رجاله، فقد اكتفى بإعطاء توجيهاته لقادة الكتائب والسرايا والجماعات، وهم الذين يتولون نقل التعليمات إلى جنودهم.

وحتى الحروب النابوليونية، كانت القادة أكثر اقترابًا من جنودهم واتصالاً مباشرًا بجموعهم، فكان التوجيه يصدر من القائد لجميع الجنود.. بل كان الجنود يتحركون ويلبون الأوامر فى أثناء القتال، ربما بإشارة من يد القائد أو تلويح بقبضته، وقد روى أن نابليون عندما تدهورت قواته فى ختام معركة ووترلو.. أشار بسبابته إلى ناحية فاندفع إليها حرسه الإمبراطورى فى محاولة لإنقاذ

ما يمكن إنقاذه.

وقد حدث تطور علمى كبير، بل مفاجأة مبهرة فى خصوص إعطاء التوجيهات، أو إصدار أمر العمليات فى خلال الحرب العالمية الثانية، عندما استخدم الراديو الترانزستور، وما كان له من دور خطير. فقد كانت أوامر القائد العام وتوجيهاته تصل إلى القادة والجنود فى الخنادق والأوكار وبطون العربات والدبابات، وذلك فى التو واللحظة، وعلى أية مسافة، كما كان الجنود يتلقون أخبار الميادين الأخرى فى شتى أنحاء الأرض، فيزداد علمهم بمجريات الحرب فى سهولة ويسر وسرعة.

والذين يسمعون اليوم تعبير «توجيهات القائد»، أو «أمر عمليات القيادة»، ربما يحملون هذه التعبيرات أكثر من حقيقتها ويتصورون أنها أمور ضخمة لم تعرف إلا فى العصر الحديث، فى حين أنها فى حقيقة الأمر أوليات وبدهيات العمل الحربى منذ القدم.

فكيف كان «القائد محمد ﷺ يعطى توجيهاته وأوامر عملياته بحكم كونه القائد الأعلى لجيش المسلمين.

لقد كان محمد ﷺ وصحابته وأعوانه دائمى الاجتماع يتناولون شئون دينهم، وقد اعتادوا الالتفاف حوله والاستماع إلى أحاديثه، لقاء الراعى بالرعية واجتماع رب البيت بأهله وصحبه، فلما أُذن لهم بالقتال، اتخذ اللقاء شكلًا جديدًا وموضوعًا جديدًا، هو اتقاء هجمات الكافرين وقتال الذين يعتدون.

كان القائد يتخذ موضعًا يراه أكثر رجاله، إنهم ينقلون إليه ما ورد لهم من أخبار أعدائهم، وما يبيتونه من محاولات للإغارة على طريق تجارة، أو التآمر لقتل جماعة، أو إتيان عمل فاضح أو جريمة بشعة، ويتشاور القائد وإياهم فيما ينبغى عمله، ثم يجهز نفرًا منهم للقيام بالعملية المضادة، ويوصيهم ويحذرهم ويشجعهم.

هذا كان شأن البعوث والمغازى، وهى أقرب فى مفهومها وواجباتها، بدوريات الاستطلاع أو دوريات القتال التى تجهز لأداء مهمة محددة، فهى تخرج بما أتيح لها من أسلحة كالسيوف والحراب والسهام، وتمضى متخفية إلى موقع العملية المرتقبة، إما لتتنسم أخبار العدو، أو لترقب تحركات قوافله أو تكتشف استعداداته.

ولعل فى سرد أحد توجيهاته لإحدى سراياه ما يؤكد هذه الحقيقة ويثبتها. كان «القائد محمد ﷺ يوجه رجاله ويعطى أوامر عملياته.

«سرية عبد الله بن جحش» - بعثه القائد ومعه ثمانية رهط من المهاجرين، وكتب له كتابًا وأمره ألّا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فيمضى إلى ما أمره به ولا يستكره أحدًا من أصحابه - وكان فيهم سعد بن أبى وقاص - فلما سار عبد الله يومين، فتح الكتاب فنظر فيه فإذا فيه:

«إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة

بين مكة والطائف، فترصد بها قريشًا وتعلم لنـا من أخبارهم».

فلما نظر فى الكتاب قال سمعًا وطاعة، ثم قال ذلك لأصحابه وقال قد نهانى أن استكره أحدًا منكم، فمضوا لم يختلف عليه منهم أحد[1].

وعندما تجهز القائد لمعركة بدر الكبرى وأتم تعبئة رجاله أخذ فى وضع تصوره للمعركة وتقدير موقف جيش قريش ومدى استعدادها، والتف حوله صحبه - مثلما صار يفعله الرؤساء والقادة بعد مئات السنين - وراح يشاورهم فى الأمر.

قال المقداد بن عمرو: «يا رسول الله امض لما أمر الله فنحن معك. والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى «اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون» ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون».

وقال عمر بن الخطاب: «يا رسول الله إنها قريش وعزّها، والله ما ذلّت منذ عزّت، ولا آمنت منذ كفرت. والله لتقاتلنـك فتأهب لذلك أهبته، وأعد لذلك عدّته»

وقال سعد بن معاذ: «لقد آمنـا بك وصـدقناك، وشهـدنا أن

---

(١) عن كتاب «عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير» وهو مخطوط من نفائس التراث العربى وضعه الإمام فتح الدين بن سيد الناس.

ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة.. فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك. والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا.. إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك. فسر على بركة الله تعالى».

وقد سر القائد بقول أحد رجاله البواسل ونشطه ذلك ثم قال:

«سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم».

هكذا كان يعقد مجلس الحرب، كأعلى ما يرجى أن تصل إليه الحرية والشورى والرأى، وأسمى ما يكون من علاقة وثيقة بين القائد ومعاونيه فى ظل الثقة والاحترام.

وقد بادر القائد بإرسال دورية استطلاع - مما كان يطلق عليه وصف «البعثة» لتأتيه بأخبار قريش، وكانت تتكون من على بن أبى طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص.. ومن هنا يتضح أن القائد كان معنيًا بأهمية الاستطلاع والحصول على المعلومات حتى يمكنه تقدير الموقف، كما أنه كان يفحص قدرات رجاله، ويكتشف الكفايات الصاعدة، والمواهب الكامنة.

وإذا ما أتم تقدير الموقف بعد أن تجمعت لديه المعلومات عن استعدادات الخصوم، فقد شرع فى وضع خطة العمليات.

قال الحباب بن المنذر:

«يـا رسول الله أرأيت هـذا المنزل؟ أهـو منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا أن نتأخر عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟».

أى: هل هذا هو المكان المناسب لنلقى فيه العدو؟ هل أوحى إليك الله بهذا المكان؟

أم أن نتشاور فيه ونبحث عن المكان الأكثر مناسبة؟

قال القائد:

«بل هو الرأى والحرب والمكيدة».

وهنا أفصح الحباب عن رأيه من وجهة النظر الحربية:

«يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل! فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبنى عليـه حـوضـًا فنملؤه فنشـرب ولا يشربون!

هكذا كان مجلس الحرب فى أعلى مستوياته..

وهكذا يكون الرأى والشورى، وتكون الديمقراطية فى الجيوش التى تنشد حرية الوطن وكرامة المواطنين.

إن محمـدًا القائـد، لم يكن ينفرد بـالرأى، ولم يصـدر أوامـره وتعليماته قبل أن يستشير صحبه، ويقف على الحقائق، ويتعرف إلى وجهات النظر المختلفة.

وتساءل الصحابة أين يكون موقع القائد فى المعركة؟ فتركهم القائد يتشاورون فى هذا الأمر الهام قبل أن يقرر ما يراه، فقال سعد بن معاذ مستأذنًا وواعيا..

«ألا نبنى لك عريشًا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا، فإن أعزّنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببناه.. وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حبًّا لك منهم. ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك».

يكشف هذا الرأى عن وجهة نظر سديدة هى أن تكون القيادة فى موضع مناسب، فإذا ما تحقق النصر فيها، وإذا ما وقع حرج، فإن فى وسع القائد - من موقعه هذا - أن يستدعى نفرًا من المسلمين إمدادًا للمقاتلين» .

ووافق القائد على هذا الرأى.

وهكذا يكون القائد العظيم فى أسلوب حشد قواته، وأخذ رأى معاونيه، واستطلاع موقف العدو، وتقدير الموقف.. وبعدها يكون قادرًا على إعطاء توجيهاته، وإصدار أوامر عملياته بكفاءة واقتدار.

وسترى عما قليل عند سرد أخبار وأحداث المعارك الكبرى التى قادها محمد ﷺ بنفسه وخاض غمارها بشخصه الجليل وقيادته الممتازة، كيف كان يعطى توجيهاته ويصدر أوامر عملياته فى معارك بدر الكبرى، وأحد، والخندق.

مفهوم القيادة عند محمد ﷺ

بمقياس النبوغ العسكرى الذى لا يحابى ولا يخطئ وبالتقدير العلمى المحايد، وبالرأى الذى انتهى إليه المؤرخون الثقات والمواصفات التى أدلى بها القادة العظام، ينبغى أن يكون الحديث عن محمد القائد ﷺ.

فما هى خصائص القائد العظيم؟

وما مدى معرفته وممارسته لمبادئ القيادة؟

وماذا كانت أغراضه من الحروب التى خاضها؟

وما كانت نتائج معاركه وفتوحه؟

وكيف أصبح الجيش من بعده؟

لقد تولى محمد القائد ﷺ سبعة وعشرين زحفًا، واشترك بالفعل فى تسع معارك هى:

بدر - أحد - المريسيع - الخندق - قريظة - خيبر - فتح مكة

- حنين - الطائف.

هذا غير السرايا التى بعث بها محمد القائد ﷺ لمهام الاستطلاع أو كمقدمات للعمليات، وقد بلغت سبعًا وأربعين سرية، فأدار دفة القتال، وأعطى تعليماته وأوامر عملياته التى جاءت بالنصر فى أشق الظروف، وفى مواجهة أعداء أكثر عددًا وعدة.

وقد كشفت هذه المعارك عن اتصافه بكل صفات القائد العظيم، كما حددها كبار العسكريين وثقات المؤرخين، وهى:

المعرفة - الشجاعة - المتانة - الكتمان -
القدوة الحسنة - قوة الخلق.

١ - المعرفة:

قبل أن يؤمر محمد ﷺ بقتال الذين يقاتلون المؤمنين، وقبل أن يلج ميدان القتال ويتولى القيادة العليا، فإنه كان قد اشتهر بأخلاق طيبة وخصال كريمة جعلت له مكانة مرموقة واحترامًا عامًّا بين أهله وصحبه والمتعاملين معه.

كانت الأمانة أول خصال هذا النبى، وكان الصدق والإخلاص فى مقدمة مزاياه.

كان - كما وصفه توماس كارليل فى كتابه البطولة والأبطال - راسخ المبدأ، صارم العزم، بعيد الهمة، كريمًا برًّا وتقيًّا حرًّا.

وكان فى فؤاد ذلك الإنسان الكبير - ابن القفار - المتوقد

المقلتين، العظيم النفس، المملوء خيرًا وحكمة.. أفكارٌ أخرى غير الطمع الدنيوى، أو طلب السلطة والجاه.

كان رجلاً من الذين لا يمكنهم أن يكونوا.. إلا مخلصين جادين!

وقد كان لاشتغال محمد ﷺ بالتجارة أثره فى تعارفه بنوعيات عديدة من الناس، وتجوله فى بقاع شتى، فكان عارفًا بطبيعة الحياة التى يعيشها قومه، ومجريات الأمور فى زمنه، والطرق والمواقع والأماكن المتعددة.

وكان قبل توليه القيادة العسكرية، قد تدرب على قيادة الرجال وتوجيه الدعوة وتنظيم الاجتماعات، وإدارة الندوات والمحاورات، وإجراء المناورات والتحركات السرية، بعيدًا عن أعين وآذان الرقباء.. فكان خبيرًا بالشعور والعواطف التى تؤثر فى الرجال لإثارة حميتهم، وكسب ثقتهم، ومناشدتهم الصبر، وتبشيرهم بالنصر.

أى أن محمدًا ﷺ كان مهيأً للرسالة قبل نزول الوحى وكان أيضًا مهيأً للقيادة قبل صدور الإذن بالقتال.

وهو قد جمع شمل رجاله وجعل منهم جماعة مؤمنة صابرة مستبشرة، فلما دعا داعى الجهاد، أخذ يعبئ رجاله للمعارك بأسلوب القائد الفطن، الذى يعرف كيف يقود رجاله إلى النصر، وكيف يواجه خصومهم إلى نهاية أمرهم.

أى أن محمدًا القائد ﷺ كان يملك «طبيعة الجندى» ظاهرة وباطنة.

كان يعيشها بالفطرة قبل أن تطأ قدمه أرض المعركة، وعاشها بغير أدنى صعوبة، وهو بين الصفوف وفى مواجهة العدو ولم يكن فى طبيعة الرجال، ولا فى أحوال الخصوم ما كان يعتبر غريبًا عنه.

وقد انفتح المجال أمام هذه القيادة الطبيعية الملهمة للممارسة العملية، والإدارة الفعلية، والاطلاع الواسع، والتحصيل المتواصل. فالتحم الفكر بالتجربة، وتدعمت الماديات بالمعنويات، وزادت حصيلة المعرفة الميدانية، والدروس المستفادة، من المعارك البطولية التى خاضها جنود الرحمن وهم يسعون إلى النصر أو الشهادة.

ولا ريب أن أهم ما ينبغى أن يكون عليه القائد، هو معرفته بصنعته، ولكن المعرفة العامة - وليست المعرفة العسكرية وحدها - هى المدرسة الحقيقية للقيادة، وليس بين عظماء القادة من التاريخ كله من لم يغترف من نتاج الفكر البشرى والمشاعر الإنسانية، ومن لم يكتسب من الاطلاع والتجربة مرونة الذهن وسعة الأفق.

تقول كتب القيادة - كما تحدثنا سير عظماء القادة - إن معرفة القائد يجب أن تستند إلى الإدراك العام (Common Sense)، والمعرفة بالشئون العامة ومجريات الأمور، والاهتمامات الإنسانية.

وفى الرأى الذى قدمناه للمارشال مونتجمرى «أنه لكى تقود جيشًا يجب عليك أولًا أن تكون واسع العلم بالطبيعة البشرية» لأن هذه هى المادة الأساسية التى ينبغى على كل قائد أن يكون ملمًا بها «وإذا أنت أهملت العامل الإنسانى فلن تكون قائدًا ناجحًا».

ومن الدراسات العصرية الموفقة فى تحليل مفهوم القيادة ومتطلباتها، ما جاء به الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه المشهور «عبقرية محمد» إذ قال عن عبقرية محمد العسكرية:

«لقد كان نعم القائد البصير إذا وجبت الحرب
ودعت إليها المصلحة اللازمة، يعلم من فنونها بالإلهام
ما لم يعلمه غيره بالدرس والمراتة ويصيب فى اختيار
وقته، وتسيير جيشه، وترسيم خططه إصابة التوفيق
وإصابة الحساب وإصابة الاستشارة».

وفى المقارنة الدقيقة التى عقدها بين «محمد القائد» ونابليون القائد، والمضاهاة بين خطط كل منهما، فقد انتهى إلى أن محمدًا القائد ﷺ، كان سابقًا فى جميع التفاصيل - وبينهما مئات السنين - والفضل للأسبق كما تحسن هنا الملاحظة بأن محمدًا ﷺ، كان يقود مئات من المشاة والجمال والسيوف والرماح، فى حين كان الثانى يدفع عدة آلاف من المشاة والفرسان ويستخدم الرصاص والمدفعية.. فلا شأن لقيمة القائد بما كان عليه العدو أو العدة.. وإنما بصفاته الشخصية وخصائصه الحربية.

٢ - الشجاعة:

لا جندية ولا قيادة بغير شجاعة، فهى الصفة الأساسية التى لا غنى عنها فى مواجهة أهوال الحرب ومفاجآت المعارك، والشجاعة

هي التى تدفع الجندى إلى المخاطرة بحياته وإلى خوض معمعان القتال.. وهو يعلم أنه يلاقى الموت.

وإذا لم يكن القائد شجاعًا، فإن وضعه يكون خاطئًا، وشخصه لا يكون ملائمًا.. ولا يمكن أن تكون المعركة فى جانب قيادة لا تستشعر روح الإقدام وعزيمة النصر.. أو على حد قول المتنبى:

سرايك تترى والدمستق هارب   وأصحابه قتلى وأمواله نهبى
كذا يترك الأعداء من يكره القنا   ويقفل من كانت هزيمته رعبا
فحبّ الجبان النفس أورثه التقى   وحب الشجاع النفس أورده الحربا

فالشجاعة هى طبيعة المقاتل: والخوف يجلب الهزيمة قبل اللقاء وفى هذا يقول أمير الشعراء شوقى:

وقام فتانا الليل يحمى لواءه   وقام فتاهم ليلة يتلعب
وهل يستوى القرنان، هذا منعّم   غرير وهذا ذو تجاريب قلّب
فأعرض عن قواده الجند شاردًا   وعلّمه قواده كيف يهرب

فما لم تكن الشجاعة صفة القائد، فسوف تطير نفوس المقاتلين شعاعًا لأنهم يفقدون الثقة فيه، ولا يجدون ما يدفعهم للتضحية ما لم تكن عقيدة القائد واضحة لدى جنوده، وثقتهم به مكتملة فى وجدانهم.

لا غرو أن تكون الشجاعة فى مقدمة صفات المحاربين، فهى المعين الذى يزود الجندى بروح الإقدام والقوة الكامنة التى تدفعه لخوض الأهوال وانتزاع النصر فى موطن الشدة والبأس... وإذا

ما وضعت المهنة فى يد الجندى سلاحًا، فإن الشجاعة هى التى تضعه فى نفسه كفاحًا.

وقد حفل تاريخ الحروب بوقائع وأحداث كان للشجاعة فيها النصيب الأوفى قبل أسلحة القتال، وإذا كان القائد هو رأس الجيش على درجة عالية من الشجاعة - العقلية والبدنية - فإنه يرى النصر ماثلاً أمامه، وهو حين يشير إلى جنده بالتقدم وهو بينهم، فإنه يدفع فيهم قوة معنوية بالغة الأثر بقوة عزمه ورباطة جأشه.

إن شجاعة «محمد القائد» كانت فى مقدمة الملكات التى عرفها رجاله، كانوا واثقين من شجاعة الرأى وشجاعة القلب وهو يخاطبهم، ويعطى تعليماته ويصدر أوامره.. فكان يشاركهم فى قلب المعركة، ويتقدمهم إلى مراكز الخطر.

وقد أثر عن على بن أبى طالب قوله:

«كنا إذا حمى البأس، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو»

وآية شجاعة محمد ﷺ أنه كان يتجنب القتال فى غير ضرورة، كما كان يخوض الحرب غير هياب ولا وجل، إذا لم تعد عن الحرب مندوحة.

عندما استقر الرأى على قتال قريش عند «جبل أحد»، وتغلبت فكرة المبادأة على الرأى بالانتظار وقال أحدهم: «اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنّا جبُنا منهم وضعفنا»، اتخذ القائد قراره على

الفور ولبس لأمته - أى تجهز للحرب.. فلما خشى بعض الحاضرين أن يكونوا قد استكرهوا القائد على اتخاذ خطة دون ما لديه، رأوا أن يعرضوا الرجوع فيما رأى فقال:

«ما ينبغي للنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل»

هذا أسلوب عظيم ينم عن ديمقراطية القيادة، واحترام رأى الجماعة وكذلك أهمية القرار وتأثيره.. فالجندى متى استشير فإنه يدلى برأيه فى حرية وشجاعة - حتى لو كان مخالفًا لوجهة نظر القائد.. وقد كان الرأى الغالب، هو المبادرة إلى لقاء العدو.. وقد صدر القرار فلا تردد ولا تراجع.

وهو ما عبر عنه الشاعر العربى بقوله المأثور:

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه وأعرض عن ذكر العواقب جانبًا

وفى معمعان معركة أحد، وفى قلب دائرة الخطر، ثبت القائد والحراب تنوشه والسهام تترصده من كل جانب، ولم يبق معه إلا اثنا عشر رجلًا.. وخلص العدو إلى محمد ﷺ وألقى عليه خصومه الحجارة حتى وقع لشقته، وأصيبت رباعيته وشجّ وجهه، وكلمت شفته، وراح الدم يسيل على وجهه.. ولكنه استمر يدرأ المهاجمين ويدير دفة القتال.. وهذا دليل سكينة النفس فى غمرة الخطر، وشجاعة القلب فى أتون الهزيمة.. فلما حانت منه التفاتة، وجد أن بعض المشركين يحاولون بلوغ ناحية الجبل، فأشار إلى عمر بن

الخطاب الذى سرعان ما تقدم ومعه بعض المهاجرين فأحاطوا بالموقع وتغلبوا على من أرادوه.

وفى غزوة حنين مال ميزان المعركة وأحدق الخطر بالمسلمين، فكان ثبات قائدهم نقطة التحول فى الموقف، إذ اقتدى به رجاله وتحولوا عن الفرار إلى الثبات والاستبسال، حتى تغلبوا على أعدائهم وتحول النصر إلى ركابهم.

فالشجاعة عند محمد ﷺ، كانت تدفعه إلى الشدة فى القتال، وإلى الثبات فى مواطن الخطر، حتى إذا انتهت المعركة انتهت معها كل ظواهر وبواطن الخصومة والعداوة، وحلت محلها الرحمة والرأفة:

الخيل تأبى غير أحمد حاميا	وبها إذا ذكر اسمه خيلاء
شيخ الفوارس يعلمون مكانه	إن هيجت آسادها الهيجاء
ساقى الجريح ومُطْعِم الأسرى ومن	أمنت سنابك خيله الأشلاء
إن الشجاعة فى الرجال غلاظة	ما لم تزنها رأفة وسخاء

٣ - الصلابة:

إن خير القواد من كان شديدًا لا تهزه كارثة، ولا توهن عزيمته مفاجأة.

والحرب صنعة قاسية لا يصلح لها إلا الرجل المتين.

وإذا كانت كل أسلحة وأدوات الحرب تتميز بالصلابة والمتانة، فلا ريب أن تكون هذه الصفة فى مقدمة صفات القائد، الذى

يتربص به الخطر، وتدور فيه المفاجـآت، وتنزل بساحة قيادته الأحداث الجسام.

فالصلابة فى العرف العسكرى هى القدرة على تحمل صدمات الحرب وتتقى مفاجأتها.. وفى ذلك قال مارشال ويفل:

«عندما تقرءون التاريخ الحربى لا ينبغى أن تفوتكم ملاحظة الإخفاق الذى كان سببه غالبًا افتقار القائد إلى صفة الصلابة»

ثم أوضح مقاله بالبيان التالى:

«لقد اعتاد رجال المدفعية اختبار متانة المدافع بإلقائها من ارتفاع معين، فإذا استمر المدفع سليمًا بعد هذه الصدمة تقرر قبوله. وذلك لأن المدافع الجبلية كانت تتعرض للسقوط ولهذا كان ضروريًّا أن تكون صالحة للعمل بعد وقوعها أو ارتطامها بالصخور.. كذلك كانت الأسلحة الصغيرة - كالبنادق - تطمر فى الوحل لمدة ٤٨ ساعة كاختبار لمعرفة كفاءتها.. إن عقل القائد لا يطمر لمدة ٤٨ ساعة فقط، بل أيامًا وأسابيع فى أوحال المعلومات غير المؤكدة، ورمال العوامل المجهولة، ويتلقى القائد الصدمات، بسبب تحرك غير محسوب، أو حادث غير متوقع، مما لا يحدث مثلها للمدافع حين تقع من ارتفاع مائة قدم..»

فإذا رجعنا إلى أحداث المعارك التى خاضها محمد القائد ﷺ، فإننا نجده متصفًا بهذه الصفة المهمة للقائد المسئول عن أرواح رجاله، وعن نتيجة المعركة.. وهى صفة المتانة.

وقد كان محمد القائد ﷺ نموذجًا لرجاله كما كان قدوة للمسلمين جميعًا إلى يوم الدين:

١ - عندما خرج من المدينة فى أول معركة مع قريش كان المجموع ٣٥٠ وعدد الظهور ٧٠ بعيرًا، فكان لكل ثلاثة رجال جمل واحد يعتقبونه - أى يركبه كل منهم مرحلة ويمشى مرحلتين فرجا الشريكان للرسول القائد محمد ﷺ أن يتنازلا عن حقهما ويتركا له البعير فيركب هو ويمشيان، ولكنه يأبى ويصر على أن يسير مثلهما شوطين ويركب شوطًا وقال: «ما أنتما بأقوى منى على المشى، وما أنا بأغنى منكما عن الأجر»

وفى مراجع الحربية الحديثة، أن فى مقدمة ما ينبغى على القائد أن يرى منه لجنود مشاركته لهم فى اهتماماتهم وهمومهم، وقد روى عن القائد الإنجليزى المارشال وليام سليم قوله:

«فى ساعة حرجة من ساعات التقهقر، صادفت إحدى الوحدات تفتح طريقًا فى الغابة، وأنبأونى أن الحالة سيئة، فألقيت عليهم نظرة عاطفة، وقلت لنفسى: يا إلهى إن الحالة أسوأ بكثير مما كنت أظن.. وسرت حول ركن الثغرة فوجدت الضباط يهيئون

لأنفسهم الشاى! حقيقة، إنهم كانوا مجهدين كالجنود، ولكن ليس هذا هو لب الموضوع.. لأن الضباط وجدوا ليقودوا الجنود. وإنى أناشدكم بصفتكم قادة ألّا تأكلوا أو تشربوا أو تدخنوا أو تجلسوا.. أو تستندوا إلى شجرة حتى تتأكدوا تمامًا أن جنودكم قد هيأت لهم الظروف أن يفعلوا ذلك مثلكم»!

٢ - أخذ محمد القائد ﷺ رأى سلمان الفارسى فى حفر الخندق، عند الموضع الذى خيف أن يهجم من ناحيته المشركون على المدينة، فأمر بحفر الخندق واشترك مع الرجال فى الحفر.. أى أنه عمل بيديه مثلما طلب من رجاله أن يفعلوا.

٣ - إن محمدًا القائد ﷺ لم يكن يدير دفة العمليات من موقع بعيد آمن، وقد كان ذلك من حقه، وكثيرًا ما نُصح به - ولكنه كان يشارك الرجال فى كل عمل، ويتقدم إلى مواطن الشدة، ويقاتل ببسالة ولا ينأى عن الخطر الماثل، وإذا رجاله يقتدون به ويقدمون إقدامه ويلتفون حوله يريدون حمايته وتلقى الضربات عنه.

وقد ثبت فى معركة حنين، والخطر يتهدده من كل جانب، فلما وجد الرجال أن قائدهم غير هياب، تأثروا بشجاعته وبلائه، وحذوا حذوه، وراحوا يواصلون القتال بشدة حتى انتصروا.

إن الجنود - كل الجنود فى كل معترك - يتأثرون بقائدهم ويقتدون به وتؤثر فيهم شجاعته وإقدامه، فالقائد هو المثل الأعلى،

والمثل هو خير معلم، وكيفما يكن القائد تكن الجنود.

وفى الحديث الشريف:

«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

إن القدوة هى بمثابة البند الأول فى دستور القيادة، فكل قائد مسئول عن الرعية وكل رعية فى حاجة إلى القائد.. والشعب هو الشعب والناس هم الناس.. ولكن بغير قيادة لا يكون عمل عسكرى، ولا تكون مسيرة وطنية ولا تقدم اجتماعي.. ووظيفة القائد دقيقة وخطيرة، فإن أقل خطر أو انحراف أو تقاعس، إنما يؤدى إلى فقد حياة كثيرين من رجاله.

٦ - قوة الخلق:

قال تعالى مخاطبًا نبيه عليه الصلاة والسلام:

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

وقال صلى الله عليه وسلم:

«أدبنى ربى فأحسن تأديبى».

وهكذا، فقد تولى أمر المسلمين فى أول عهدهم بالقتال قائد على خلق عظيم، أدبه ربه فأحسن تأديبه.. وهذه غاية الغايات فى حياة الإنسان العظيم.

فما هو مكان «الخلق» فى قائمة صفات القادة على الزمن كله؟

لقد أجمع الثقات والخبراء فى شئون القيادة والحرب على كثير من

خصائصها، ولعل أهم ما ورد فى هذا الصدد. وأسمى ما يجتمع من صفات: الشجاعة والحزم والغيرة على الشرف - الطاعة.

كان محمد القائد ﷺ يتخذ قراره بالمضى فى الحرب غير هياب، بل عظيم الثقة، وكان لا يكتفى بإدارة المعركة من مركز القيادة، وإنما كان يخوض القتال بين رجاله.. وإذا ما اشتدت رحى القتال رأوه فى دائرة الخطر يقاتل ببسالة.. وإذا ما دارت دائرة الحرب على جيشه، فإنه لاتفارقه الشجاعة، ولم يبارحه ثباته، وإنما يتلقى الصدمة يدرؤها ويلوح للرجال بالثبات ويشير إليهم ببشائر النصر.

وفى معركة حنين حدثت مفاجأة كادت تقضى على كل أمل لولا صلابة القائد الذى ثبت فى معترك الشدة، وأعطى لرجاله قدوة الثبات.

كان محمد ﷺ يدرس الموقف بعناية وفطانة، ويستشير صحبه حتى إذا اتخذ قراره لم يرجع عنه.. فهو قائد لا توهن عزمه مفاجآت الحرب وصدماتها، ولا تحوله عن هدفه أى طوارئ بالغة ما بلغت من الشدة.

٤ - الكتمان:

الكتمان - أو التحفظ على الأسرار والحيلولة دون توصل العدو إليها - فى مقدمة متطلبات العمليات الحربية، وواجبات القائد ومسئولياته، وقيل فى التاريخ الحربى لنابليون: إنه لم يكن هناك من

يضارعه فى صحته، وقد علّم قواده أن يحيطوا أنفسهم بمنل صمت الرهبان، ولم تكن شفاههم تنطق بالقرارات الحربية إلا فى حينها، ولا تعلن عن أخبار أو معلومات إلا فى الوقت المحدد لها تمامًا، وللشخص أو الأشخاص المنوطين بها والمسئولين عنها.

فالكتمان ضرورة حتمية لحفظ الخطط والأسرار الحربية حتى لا يعلم بها العدو، ولذلك تستخدم الرموز وتحدد نسخ الأوامر، وتودع الخطط فى الخزائن كما تحفظ الجواهر الثمينة التى لا تقدر بثمن.

وقد أنشئت المخابرات الحربية فى جميع الجيوش ومهمتها الرئيسية صيانة المعلومات مع السعى للحصول على معلومات عن العدو، ومن هنا بدأت العمليات المتبادلة التى يضطلع بها الجواسيس والإرهابيون، فمعركة المخابرات تعتبر مقدمة لا غنى عنها لمعارك الجيوش، وكم أخفقت خطط بسبب تسرب أخبارها، أو وقوع أحد ضعاف النفوس وفاقدى الوطنية فى حبائل مخابرات العدو.

فماذا كانت ميزة الكتمان عند القائد محمد ﷺ والذين معه؟.

لقد كان من خصائصه البارزة الحفاظ على ما يوحى به إليه، فلا يحدث به أحدًا حتى يؤمر بذلك، صدوعًا لقوله تعالى ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، نم إنه استمر يحمل الدعوة فى السر ثلاث سنوات حتى أذن الله أن يظهرها.

وفى السيرة العسكرية لمحمد ﷺ، تتضح عنايته بالسرية والأمن،

وقد كان يختار الوقت والمكان المناسبين لتجهيز البعوث والسرايا، ويطمئن تمامًا إلى من يعهد إليه بالمسئولية، ومن ذلك بعثة عبد الله ابن جحش، فقد جهزه لعملية استطلاعية قد تستوجب قتالاً، ثم سلمه رسالة وكلفه ألّا يطلع عليها قبل مسيرة يومين، فلما فضها وجد فيها التعليمات وأمر العمليات فى الوقت والمكان المناسبين وبذلك تحققت السرية لأبعد مدى، وتمكن عبد الله أن يظفر بالغرض الذى أرسل من أجله هو وأفراد بعثته.

٥ - القدوة الحسنة:

كان محمد ﷺ قدوة للمسلمين بأخلاقه العظيمة وصفاته الجليلة وقد نزلت الآية الكريمة: ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة﴾ وقد تجلت هذه الحقيقة فى «محمد القائد»، فكان قدوة لرجاله بما كانوا يرونه من الإيمان والثبات والإقدام والصبر، وغيرها مما ينبغى أن يتوفر لرجال القتال.

وإذا كان القائد هو موضع ثقة الجنود، ومطمح أنظارهم ومشرق آمالهم، فإن القدوة تحدث تأثيرها على العقول والنفوس، ولهذا يقال: كيفما يكن القائد تكن الجنود.

ومن واجب القائد الذى يطلب من جنوده النظام والشجاعة والثبات فى مواطن الشدة، أن يكون متحليا بهذه الصفات.. ولا يكون نموذجًا ولا مثلًا أعلى للجنود إلا من اتصف بخصائص

الجندية، ولعل من أزهى الخلاصات فى وصف القائد الكبير قول الشاعر العربى:

وقلدوا أمركم لله دركمو رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عض مكروه به خشعا

والجندية تقوم على الشجاعة، وقد كان يحرم من شرف الجندية من يثبت عليه التراجع أو النكوص، أو الرجوع فى كلمة الشرف التى أخذها على نفسه.

إن شرف العسكرية غال، ولا بد أن يتخذ القائد سلوكًا يميزه عن بقية الناس ويجعله قدوة لرجاله، وإن الشعار الذى يجب على القائد أن يتخذه لنفسه ولجنوده هو:

«الموت.. ولا العار»

وإذا أوذى شرف القائد فلا شىء يكفر عنه.. حتى الموت!

إن القائد العظيم – كما وصفه أحد قادة الحروب الحديثة، المارشال فايول – هو الذى يجمع إلى متانة الخلق سلامة الذوق وكثيرًا من التحصيل.

ويقول المارشال ويقل:

«إن القائد الناجح هو القائد على خلق، لأن النجاح فى الحرب يحتاج إلى الشجاعة وقوة العزيمة»

والحق أن القائد فى حاجة لكل فضيلة، ولكن هناك صفات أكد عليها واتفق على أهميتها كبار الباحثين فى سير القادة، ومنها «الإرادة»، وهى التى تجعل القائد يتخذ قراره وهو مقدر لنتائجه، و«الثبات على الجهد» الذى يقضى على كل تردد ويذلل كل صعب.. وما العبقرية إلا نتيجة جهد عظيم، وتسعون فى المائة منها عرق.. ثم «الشجاعة» التى لا يهتز صاحبها أمام الكوارث، ولا يطير لبه بفعل المفاجآت.

وقد راجع المارشال مونتجمرى وقابل بين صفات ثلاثة من القادة الذين أعجب بهم، واعتبرهم ثلاثة نماذج للقائد العظيم، وهم: «موسى» (سيدنا موسى عليه السلام). و«أوليفر كرمويل» القائد الإنجليزى الذى أقام أول جمهورية فى إنجلترا، ثم انتهت بموته - و«نابليون بونابرت» القائد الفرنسى الشهير.. وخرج مونتجمرى من دراسته بالنتيجة التالية:

«إن القيادة هى التصميم على العمل بروح تستحوذ على ثقة الجنود»

«إن قياس قدرة القائد تتوقف على أمرين:

الأول: التصميم على حشد رجاله فى الظروف التى تحيط بهم وبأقصى قوة، لإحراز الفرصة دون أن تحوله عن هذا الغرض أية قوة.

الثانى: قوة خلقه وعظمة شخصيته، التى تجعل رجاله يضعون ثقتهم فيه، ويتأكدون من قدرته على قيادتهم إلى النصر»

وقال مونتجمرى:

«إن الميزة الكبرى لكل من موسى، وكرومويل، ونابليون.. هى:

- إيمان القائد بالجنود، وثقة القائد بنفسه وبرجاله وبهدفه.
- إن القائد الذى لا يهتم بالناحية الإنسانية هو قائد غير موفق.

وإذا كان هذا هو الرأى القديم والحديث فى موقع الخلق من قائمة الصفات الأساسية للقائد.. فإن محمدًا ﷺ يكون بلا أدنى ريب وبكل العدالة، فى أول قائمة كبار القادة فى جميع الأزمان.

إن القائد العربى الذى نشأ فى قلب الصحراء ولم تكن الحرب هوايته ولا حرفته، والذى كان يدعو إلى الإسلام والسلام، مضى إلى رسالته بثبات وروية. لم يكن يخشى الحرب إذا فرضت عليه ولم يكن عنها بد، وكان يمضى إلى القتال موفور العزم مكتمل العدة كبير الثقة.

وقد توالى نزول الآيات البينات ليعلم المسلمون ما يتعرضون له من إيذاء وعدوان، وكيف يواجهون الصعب ويقتحمون الأهوال.

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن
لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾

﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله

بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾

﴿انفروا خفافًا وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله﴾

﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيمًا﴾

﴿إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تولوهم الأدبار﴾

﴿يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾

﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾

﴿فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين﴾

﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾.

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾.

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾.

هكذا، فإن محمدًا القائد ﷺ، دخل معمعان الحرب وقاد جيش المسلمين وهو على بينة ومسئولية، وقد استعد لها بما أوتى من إيمان وخلق وقدوة.

لم تكن متطلبات الحرب مذكورة فى كتاب، ولا واردة على لسان ولهذا كان على القائد أن يفكر ويبتكر، ويجهز وينظم رجاله، ويضع الخطط ويعطى أوامر العمليات.

كان هو القائد والقدوة والمعلم والموجه، وواضع النظريات والمبادئ والأخلاقيات التى عمل بها قواده وخلفاؤه، ثم صارت للمسلمين جميعًا من بعده رسالة ودستورًا.

٦ - الحرية والشورى:

كان جيش الجهاد الإسلامى جيشًا من الأحرار يؤمنون بالدعوة ويثقون بالهدف، ويدركون ما يدبره لهم الخصوم، ويتوقون لقتال الذين يقاتلونهم.. سعيا إلى إحدى الحسنيين: الظهور أو الشهادة.

لم يكن جيشًا مساقًا بمقتضى القوة والأمر، ولا مبعوثًا إلى حيث لا يعرف، ولم يكن جيش غزو وأطماع، أو قهر وعدوان.

مثل هذا الجيش يكون جميع أفراده على معرفة بكل تدبير وخطة وهدف، ولهذا يتحرك الرجال عن اقتناع، ويحاربون بلا هوادة، ويقبلون على الموت ليستحقوا الحياة الحرة الكريمة.

هذا الذى كان الجيش الإسلامى يفهمه ويجاهد من أجله هو ما تبارت القيادة على مر الزمن فى تحقيقه إذا ما كان الحق رائدها، والأهداف الكريمة غايتها.

وإن مهمة القائد العظيم العارف بمسئولياته هو إذكاء روح الحرية فى إبداء الرأى وإثارة عوامل الإدراك والثقة والاقتناع فى رجاله.

وبهذه الحقيقة التى تدرس اليوم فى الجامعات العسكرية، وتحاول القيادات الكبرى بلوغها.. كان «محمد» القائد ﷺ يمارس المشاركة والمشاورة مع رجاله تأكيدًا للثقة واطمئنانًا إلى صحة الرأى وصدق الهراء.

٧ - اختيار الشباب لمراكز القيادة:

الشباب هم مناط النشاط والحيوية وبراعم الشجاعة البدنية والمتانة، أى أن لهم القدرة على تحمل قسوة الحرب وتلقى مفاجآتها وويلاتها.

ولهذا كان اليونان والرومان الأقدمون يختارون لجيوشهم القادة

الشبان، الذين يستطيع الواحد منهم امتطاء صهوة جواده عشرين ساعة فى اليوم، ثم يحيطونهم بهيئة أركان حرب من الرجال الكبار ذوى الخبرة والدراية بمسالك الجبال، وبالتجربة السابقة فى خوض الحروب.

وقد أحرز عظماء القادة فى التاريخ شهرتهم الحربية وانتصاراتهم المأثورة، وهم فى زهوة الشباب وضحوة العمر، وتمت أعظم العمليات تحريكًا لنفوس الرجال، بفضل شبان بواسل يجمعون بين الكفاءة والفطانة والإقدام.. فالشباب هو عهد البطولة ومرتع التفوق.

كان الإسكندر المقدونى فى الخامسة والعشرين من سنى حياته عندما أحرز النصر المؤزر فى معركة «أرابيلا» إحدى المعارك الفاصلة فى التاريخ فتقوض ملك فارس أقوى إمبراطورية فى زمنه، وغزا مصر وبابل وفتح الهند.

وعبر هانيبال القرطاجنى البحر وصعد الجبل وأقدم على مجازفة وصفت بأنها من أعمال الشياطين.. وغزا إيطاليا.. ولكنه بعد ست عشرة سنة من ذلك التاريخ، لم تعد لديه القدرة اللازمة لقهر القائد الفتى : سيبيو.. الذى هزم الشيخ صاحب الأمجاد فى معركة «زاما».

ولمعت فى ريعان الشباب أسماء القادة العظام فى التاريخ: بلزاريوس الإغريقى، وفردريك الأكبر البروسى، وتورينى مارشال فرنسا وهو فى سن الثانية والثلاثين، وكونديه الفرنسى القائد العام فى سن الثانية والعشرين!

وحارب نابليون جيوش أوربا وهزمها جميعًا وهو فى شرخ الشباب، وكان يحرك التيجان والعروش على رقعة الشطرنج، ويضع تصميمًا جديدًا لقارة أوربا من صنع خياله وبحد سيفه.. وقد كان من رأى نابليون ألّا يتولى القيادة من يتجاوز عمره الخامسة والأربعين.. ولعل ذلك كان سر انهزامه فى معركته الأخيرة «ووترلو».. كان قد بلغ السابعة والأربعين من عمره فى تلك المعركة الفاصلة التى اشتهرت بكلمته المأثورة:

«فقدنا كل شىء إلا الشرف».

وفى بداية الحرب العالمية الثانية عمد مجلس الحرب البريطانى إلى تغيير القواد القدامى الذين لا يقدرون على أعباء الحرب الحديثة ووضع فى مراكز القيادة قادة أصغر سنا وأوفر شبابًا وحمية، وقال المجلس أن نجاح الجيش يتوقف قبل كل شىء على حالة الضباط وما هم عليه من قوة العزم وسرعة الخاطر.

وإذا ما نظرنا إلى قائمة القادة العسكريين من أتباع محمد القائد ﷺ، وجدنا أمثلة لا يحصيها عد لقادة ينبضون شبابًا وشجاعة وحكمة وإيمانًا.. قادة على أخلاق ومبادئ ومثل عليا، سيوفهم تقطر دمًا وقلوبهم تفيض خيرًا ورحمة.

فى قيادة محمد كان الشباب الوثاب موضع العناية ومعقد الرجاء، ولقد تمرسوا بالحرب فى صباهم، واشتركوا فى وضع الخطط، وتدربوا على تحمل المسئولية.. وفى معمعان الحروب العربية لمعت أسماء على

ابن أبى طالب، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وأبى عبيدة عامر بن الجراح، وسعد بن أبى وقاص، والزبير بن العوام، وأسامة ابن زيد.

ومن الظاهرات التى شغلت الأذهان كان تعيين أسامة بن زيد - وهو فى العشرين من عمره - قائدًا لجيش المسلمين وفيه أبو بكر، وعمر، وكبار المسلمين.. وإنما ولاه القائد الأعلى محمد ﷺ ليجعل له من فخار النصر ما يجزى به استشهاد أبيه زيد بن حارثة فى معركة «مؤته»، ولكى يعتاد الشباب الاضطلاع بتبعات القيادة ومسئوليات الأمة.. وقد كان آخر ما أمر به «محمد القائد ﷺ عندما حضرته الوفاة»:

«انفذوا بعث أسامة»

وقد كان أسامة خليقًا بالقيادة العامة، كما كان أبوه خليقًا بها، فحمل اللواء واندفع بشبابه الوثاب يقطع البيداء والمفازات تحت وطأة الحر الشديدة، والسرعة المتناهية، حتى بلغ البلقاء.. ونزل فى «مؤته»، ومنها أغار على «آبل» و«قضاعة»، وأحرز النصر المؤزر فى عملية انقضاض رائع وهجوم جرىء فى عماية الصبح.

إن القائد المؤمن برسالته والحافظ لأمانته، لا ينظر إلى مسئوليته وحسب، وإنما ينظر إلى المستقبل، وإلى مصير الجيش والأمة من بعده، ولذلك حرص «محمد القائد ﷺ على أن يجهز رجال المستقبل، فأعمل فكره وأجاد اختياره لعدد من الشبان البواسل الذين اقتدوا

بمثل أعلى، واختطوا بأفكارهم ونجابتهم الطرق التى تحركت عليها جيوش المسلمين فى كل متجه حتى غيروا وجه خريطة العالم، وجعلوا الإمبراطورية الإسلامية الخالدة بين الخليج العربى والمحيط الأطلسى كما امتدت فتوحهم إلى الهند والصين وعدد كبير من بلدان أوربا.

٨ - الخدعة والمفاجأة:

من مأثورات وتوجيهات محمد القائد ﷺ قوله:

«وادرعوا الليل فإنه أخفى للويل».

والمعنى أن يتخذوا من الليل درعًا أى ستارًا يحمى القوات المهاجمة من نظر العدو ونيرانه، حتى تتم المفاجأة، وتنزل به الويلات وهذا سبق بعيد العهد بما تدعونا إليه اليوم مناهج التدريب الحربى الحديث فى أهمية (العمليات الليلية) وتحقيق مبدأ (المفاجأة)، وضرب العدو فى عماية الصبح من حيث لا يحتسب.

عندما ظهرت للمسلمين بوادر الخطر الذى بيته العدو على الحدود، بعد الذى كان بينهم وبين الروم فى موقعة «مؤتة» وموقعة «تبوك»، اتخذ القائد محمد ﷺ قرارًا بتجهيز جيش كبير لحماية التخوم العربية ودرء خطر الروم وردعهم، وجعل على رأس هذا الجيش قائدًا شابًا لم يبلغ العشرين من عمره هو أسامة بن زيد وزوده بتعليماته وتوجيهاته.

تلقى أسامة أوامر القائد محمد ﷺ تدعوه أن يوطئ الخيل تخوم «البلقاء» و«الداروم» من أرض فلسطين، وأن ينزل على العدو فى عماية الصبح، وأن يمعن فيهم قتلاً، وأن يحرقهم بالنار، وأن يتم ذلك دراكًا حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه.. فإذا ما تم له الفوز فليسرع بالعودة غانمًا ظافرًا.

ووضح من تلك التعليمات الحربية.

- الهجوم فى الفجر.
- السرعة.
- المفاجأة.

وهى جميعًا من متطلبات المعارك العصرية وخططها التى تدرس فى الأكاديميات الحربية الحديثة فى جميع الدول.

٩ - الروح المعنوية:

إذا كان اجتهاد المجتهدين من أصحاب الفكر والرأى فى شئون القيادة والحرب حتى عهد نابليون بونابرت، قد انتهى إلى مبادئ الحرب السبعة[١] الثابتة، فقد كشفت الحروب فيما بعد عن مبدأ ثامن هو: الروح المعنوية.

---

(١) مبادئ الحرب هى: الغرض - الحشد - الوقاية - المبادأة - خفة الحركة - الاقتصاد فى القوة - المفاجأة - الروح المعنوية.

وهذا المبدأ الجديد الثامن من مبادئ الحرب التى لا غنى عنها لإحراز النصر كان مطبقًا تمامًا فى عهد «القائد محمد ﷺ» بل كان من أسلحته الفعالة، وقد أثر عنه قوله:

«نصرت بالرعب»

كانت الحرب فى رأى النبى ﷺ عقيدة وسلاحًا، العقيدة فى الوجدان والسلاح فى اليد.

وإذا ما وضعت الحرب فى يد الجندى سلاحًا، فإن العقيدة هى التى تضع فى نفسه كفاحًا، هذه الروح المعنوية العالية هى التى تدفع الجندى للإقدام، وتعبئ وجدانه لمجابهة الأخطار، وتعينه على إحراز النصر.

كان جندى الإسلام شغوفًا بالجهاد، مرحبًا بلقاء العدو، مدفوعًا إلى رد الصاع صاعين، فإما كسر شوكته وإحباط عدوانه، وإما الموت فى سبيل الحق والعقيدة..

الظهور.. أو الشهادة

وهو حافظ الآية الكريمة:

﴿ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ .

ومتى أصبح الموقف واضحًا هكذا أمام الجندى، فإنه يندفع فى منازلة خصمه غير عابئ بأية تضحية، وكأنه يردد قول الشاعر:

فسوتى فى الوغى أربى لأنى رأيت العيش فى أرب النفوس

كان على بن أبى طالب، مقدامًا لا يتأخر عن الصف الأول، فلما أنذره أصحابه أن يتراجع لأن العدو يترصده، قال على:
«أبالموت تخوفوننى؟ والله ما أبالى أسقطت على الموت أو سقطت الموت علىّ»

وقيل لعلى:
«إن درعك لا ظهر لها».
قال: إذا استمكن عدوى من ظهرى فلا أبق».

عندما أحاط نفر من العدو بجعفر بن أبى طالب وهو يحمل اللواء فى قتال الروم بعد مقتل زيد بن حارثة. فأثخنوا عليه بالضرب الدراك حتى قطعت يمينه فأمسك اللواء بشماله فأصابتها ضربة قاطعة.. فما كان منه إلا أن ضم اللواء بعضديه، ولبث يقاتل حتى قتل.. فأخذه عنه عبد الله بن رواحة، الذى انطلق يجول ويصول بشجاعة نادرة، كأنه يريد أن يحذو حذوهما وكان يردد بصوت مسموع:

يا نفس إلّا تقتلى تموتى   هذا حمام الموت قد صليت

هكذا تفعل الروح المعنوية فى الجندى المؤمن، تزيده شجاعة وإقدامًا، وتملؤه ثقة بواجبه الأسمى، مما عناه الشاعر بقوله:

يستعذبون مناياهم كأنهمو   لا ييئسون من الدنيا إذا قتلوا

وقد رأينا فى عصر الحروب الحديثة اهتمامًا بالغًا بالروح المعنوية، وكان نابليون بونابرت يقول:

«إن القوة المعنوية تساوى ثلاثة أمثال القوة المادية»

ويقول:

«توجد فى العالم قوتان: السيف والروح
والسيف غالبًا ما ينهزم أمام الروح»

وفى الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨)، كان الحلفاء يمارسون حربًا نفسية ضد الألمان حتى صرح قائدهم المارشال لودندورف:

«أن الأعداء الذين عجزوا عن مغالبتنا بالسلاح
قد عمدوا إلى إضعاف ثقتنا بأنفسنا. وكانت هزيمتنا
سيكلوجية أكثر منها هزيمة حربية»

وفى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)، أنشأت الولايات المتحدة هيئة عليا للإشراف على استراتيجية الدعاية إشرافًا يستند إلى الأسس السيكلوجية، لمخاطبة الحلفاء تمكينًا للصمود، وتلويحًا بالنصر، وكذلك لدحر معنويات العدو وإرغامه على الاستسلام.

إن كثيرًا من المعارك - قديمًا وحديثًا - لم تكن الغلبة فيها راجعة لكثرة فى العدد، أو وفرة فى السلاح، وإنما كان للروح المعنوية العالية فضل إنقاذ المواقف الصعبة، وانتزاع النصر من براثن الهزيمة.. وفارق كبير بين جيش عدوانى يسرف فى إزهاق الأرواح وسفك الدماء وتخريب الديار طمعًا فى الغزو والسيطرة.. وجيش وطنى

مناضل يدافع عن الأرض والعرض، ويستميت فى وقف العدوان، وصد المعتذين الظالمين.

وفى هذا نزلت الآية الكريمة:

﴿يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾.

وقد ازداد المؤمنون قوة بفضل العقيدة، فانتصروا فى معركة بدر الكبرى وعددهم ثلاثمائة، وعدد المشركين ألف..، ثم تتابعت انتصاراتهم فى كل معترك حتى كان مجرد تحركهم للقتال يثير الفزع فى نفوس أعدائهم.. وتلك ميزة القوة المعنوية.

بعث خالد بن الوليد رسالة لقائد الفرس يخيره بين الإسلام أو الجزية أو الحرب، ويقول:

«جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة!»

وعندما أرسل سعد بن أبى وقاص وفدًا إلى الملك يزدجرد عاهل الفرس، قال المغيرة بن شعبة مخاطبًا الملك:

الإسلام أو الجزية.. وإلا فالمناجزة!

أى: أمامك أحد ثلاث: أن تتفهم الدعوة وتقتنع بها، وتدخل ومن معك فى دين الله أو تدفع الجزية ذليلًا صاغرًا وإلا فالسيف!

فمن أين جاء المغيرة وأصحابه بهذه القدرة والثقة، وهم يعلمون أنهم أقل من خصومهم عددًا وسلاحًا وجاهًا؟

إنها قوة العقيدة، أو القوة المعنوية.. المبدأ الثامن من مبادئ الحرب التي لا غنى عنها لإحراز النصر.

مرحلة المعارك الحاسمة

كان الخلاف قد احتدم بين المسلمين والمشركين، وتكررت الوقائع بين الفريقين، وصار كل منهما يتأهب للآخر، ويتعرض له ما واتته الفرصة، ووسعته الحيلة، وأصبح على المسلمين الذين طال بهم الصبر، واشتدت عليهم المحن من أذى قريش وتواصل تعديها، أن يكونوا على حذر وأن يزدادوا قوة، وألا يقفوا عند حدود المدافعة والاتقاء، كما لو كانوا قد فطنوا واستعدوا للعمل بالمبدأ القائل إن الهجوم هو خير وسائل الدفاع.

كذلك اتسعت صورة الحرب، فازداد كل من الفريقين عددًا وعدة، ولم يعد الهدف مجرد مناوشة بالأسلحة أو مبارزات فردية، أو هجمات خاطفة ثم ارتداد، وإنما صار الاستيلاء على الأموال والتجارة هدفًا يشتد كل منهما فى طلبه.

وجاءت مرحلة المعارك الحاسمة للفصل بين الحق والباطل ووقف

عدوان المعتدين.

وقال المقداد بن عمرو لقائده العظيم:

«يا رسول الله امض لما أمر الله فنحن معك. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون»

وقال سعد بن معاذ:

«إنا صبر فى الحرب، صدق فى اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله تعالى»

١

معركة بدر الكبرى

وقعت غزوة بدر يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان فى السنة الثانية للهجرة.

وقد مضت وقائعها كما يلى:

١ - نشطت بعوث الاستطلاع التى تميزت بها قيادة المسلمين، وجاءت بأخبار تفصيلية عن خروج أبى سفيان على رأس قافلة ضخمة، فى خريف السنة الثانية من الهجرة، قاصدًا الشام، لتجارة كبيرة، وقد أحصى عدد الجمال بألف جمل، وأن القافلة اتخذت أهبتها، فكان فى حراستها أربعون رجلاً مسلحًا.

وكان على المسلمين أن ينتقموا من عدوان قريش، وأن يصيبوا أموالهم ويهددوا طريق تجارتهم، حتى تفتر نفوسهم عن معاودة العدوان بعد حساب الخسائر فى الأرواح والأموال.

وهكذا أخذ جيش المسلمين فى بداية تكوينه ومقدمات عملياته،

بمبدأ المفاجأة، أى ضرب الخصم حيث لا يتوقع، سواء من ناحية الزمان أو المكان، كذلك قدروا أن هزيمة الخصم لا تكون فى ساحة المعركة وحدها، لأن إصابة أمواله تعود عليه بالضرر البالغ، وقد أصبح طريق تجارته مهددًا، وأمواله غير مصونة.

وكانت المعلومات التى حصلت عليها بعوث الاستخبار دقيقة، فأحصت حجم القافلة وعدد الجمال، وقوة الحراسة وتوقيتات الذهاب والعودة، وطريق القافلة فى ذهابها وإيابها.

٢ - أخذ القائد محمد ﷺ يضع خطته بحشد كبير من المهاجرين والأنصار، اختار لتجمعهم موضعًا خارج المدينة - عند بئر أبى عتبة - حيث استعرض ثلاثمائة وخمسة من المجاهدين المتأهبين للقتال، تحت لواء مصعب بن عمير وقد لاحظ المراقبون والمؤرخون حدثًا ملفتًا للفكر، فى أثناء السير من المدينة إلى موقع التجمع، فقد كانت إبل المسلمين سبعين بعيرًا مما اقتضى أن يشترك كل ثلاثة فى بعير، بمعنى أن يركب واحد مسافة ثم يركب الثانى ثم الثالث، وهو ما كان يطلق عليه «الاعتقاب»، وكان يشارك الرسول على بن أبى طالب وأبو لبابة، فعزّ عليهما أن يمشى القائد المكرم ثلث المسافة مثلهما وطلبا إليه أن يظل راكبًا وهما يمشيان المسافة كلها.. وإذا بالقائد المحنك والإنسان القدوة، يأبى هذا التمييز ويصر على أن يقطع ثلث المسافة ماشيًا على قدميه شأنه شأن أى محارب، ثم كانت كلماته بمثابة درس لا بد أن يعنيه كل مسلم:

«ما أنتما بأقوى منى على المشى وما أنا بأغنى عن
الأجر منكما».

وهكذا أعطى القائد الأعلى لجنوده القدوة والمثل الأعلى، فقد صمم على أن يشارك رجاله الأعباء والمشاق، ثم أراد أن يبصر الجميع بأن لكل مجاهد أجرًا، وأن الثواب على قدر المشقة، وأنه يريد بعمله أن ينال رضا الله ويحصل على ثواب المجاهدين.

٣ - عندما اقترب موعد عودة القافلة ظهرت طلائع قريش يستعدون لاستقبالها والذود عنها إذا ما وقع عليها هجوم، فكان على القيادة أن تتجهز لمعركة كبيرة وليس لمجرد عملية ضد قافلة أى أن الوقعة ستكون ضد قريش بكل رجالها وسلاحها وقدراتها.

٤ - عندما تمت تعبئة جنود الإسلام، اجتمع القائد بكبار صحبه للمشاورة ووضع خطة المبادأة - تمامًا كما يحدث فى «مجلس الحرب» الذى تعده القيادات العصرية.

قال المقداد بن عمرو مخاطبًا القائد الأعلى:

«يا رسول الله امض لما أمر الله فنحن معك، والله
لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب
أنت وربك فقاتلا.. إنا ها هنا قاعدون! ولكن: اذهب
أنت وربك فقاتلا.. إنا معكما مقاتلون.»

وقال عمر بن الخطاب، وقد أدرك أن القتال لن يكون ضد قافلة أبى سفيان وحسب، وإنما أمام قريش بأسرها:

«يا رسول الله إنها قريش وعزّها والله ما ذلت منذ عزّت. ولا آمنت منذ كفرت، والله لتقاتلنك! فتأهب لذلك أهبته، وأعد لذلك عدته.»

وقال سعد بن معاذ:

«لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق. وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة. فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك.. والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر وخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبر فى الحرب، صُدق فى اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله تعالى»

وقد سر القائد بهذه الروح العالية التى عبر عنها كبار رجال حربه، ونشطه ذلك، فقال:

«سيروا وأبشروا.. فإن الله قد ودعنى إحدى الطائفتين والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم»

هكذا استطاع القائد أن يتعرف على رأى كبار أعوانه، ووجد منهم إجماعًا على خوض المعركة، فارتحل بهم إلى ساحة العمليات المرتقبة، قريبًا من بدر.

٥ - وفى الموضع الذى اختارته القيادة العليا لبدء عمليتها ضد

العدو بدأ تجهيز «الأعمال العادية فى الموقع»، وفى مقدمتها إرسال طوف (دورية) للاستطلاع اشترك فيها على بن أبى طالب، والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص.

ومن هنا تتضح حقيقتان من حقائق الفكر الحربى عند المسلمين منذ أول عهدهم بالحروب:

الأولى: أهمية الاستطلاع والحصول على معلومات عن الخصم قبل وضع خطة العمليات.

الثانية: اكتشاف الكفاءات المخبوءة، واستطلاع ميزات وخصائص المحاربين.

إن اختيار القائد للشبان الثلاثة الذين عهد إليهم بمهمة الاستخبار والحصول على معلومات، تؤكد بعد نظره وعرفانه بمؤهلات المحارب المتنبه، ذلك الذى يتميز بالشجاعة وخفة الحركة. مع القدرة على الوقاية والتخفى والفطانة فى تقدير موقف العدو، ومدى استعداده وما لديه من قوات وأسلحة وجمال وخيل..

وقد كان القائد محمد ﷺ هو أستاذ الساحة التى أنجبت للإسلام والعروبة عددًا من القادة الميامين، الذين أحرزوا النصر فى عديد من المعارك وقادوا أعظم الفتوح ووضعوا خريطة العالم الإسلامى، وأرسوا أساس الأمة العربية الكبرى.

٦ - تحرك طوف الاستطلاع فى حذر وبراعة وإلى أقصى ما يمكن التقدم إليه، ومن موقع حاكم أمكن القبض على رجلين

شاهدى عيان تم استجوابهما، فأدليا بمعلومات مهمة عن الموقع الذى استعدت فيه قريش، وعن عدد البهائم التى نحروها، وكانت تسعة أو عشرة أى أن القوم بين التسعمائة والألف.

وهكذا استطاع القائد أن يعرف عدد العدو من واقع كمية المؤن التى يستهلكها، كما حصل من الأسرى على معلومات مفيدة، فقال:

«هذه مكة قد ألقت عليكم أفلاذ كبدها»

٧ – نظر الحباب بن المنذر فى الموقف، واتجه بالسؤال إلى القائد:

«يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل (أى الموقع الذى اختير لبدء العمليات) أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟»

قال القائد:

«بل هو الرأى والحرب والمكيدة»

قال الحباب:

«يا رسول الله.. إن هذا ليس بمنزل! انهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم، فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبنى عليه حوضًا فنملؤه.. فنشرب ولا يشربون!»

قال القائد:

«لقد أشرت بالرأى».

وانتقلت القوات إلى حيث أشار الحباب بن المنذر، وهكذا نلتقى نحن بواحد من نماذج القيادة الرشيدة فى جميع العصور.

إن القائد - وهو رسول الله ﷺ - لم ينفرد بالرأى ولم يفرض على رجاله أن يقولوا دائمًا سمعًا وطاعة.. ولكنه ترك لهم حرية الرأى ونكش الفكر وصراحة القول وشجاعة الحوار، حتى إذا جاء أحدهم بفكرة صحيحة أو رأى سليم، فإنه يوافق عليه ويأخذ به ويضعه فى تقديرات خطته.. ولا يأنف القائد العظيم أن ينزل عند رأى أحد قادته المجاهدين البُسلاء حين أشار بتعديل الأوضاع وتبديل الخطة.

٧ - وواتت فكرة مشرقة سعد بن معاذ، فكاشف بها القائد:

« يانبىّ الله. ألا نبنى لك عريشًا تكون فيه ونعد عنده ركائبك.. ثم نلقى عدونا، فأن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببناه، وإن كانت الأخرى جلستَ على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبىّ الله ما نحن بأشد حبًّا لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك.. يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك »

فأثنى القائد على فكرته وأمر بإقامة العريش مقرًّا لقيادته.

إن عرض سعد لفكرته واستجابة القائد لها، تكشف عن حرية الرأى وأهمية الشورى، وضرورة إشراك أصحاب الرأى فى وضع

الخطط، وتشجيعهم على التفكير والتقدير والتخطيط والمصارحة.

والفكرة التى عرضها سعد تكشف عن حاسة الحرب وفن تقدير الموقف، فهذا المجاهد الباسل لم يغلق عينه وفكره، وإنما أخذ يجيل البصر والفكر ويستعرض الإمكانات لدى الطرفين فوجد أنه لا بد من التحوط ومن ذلك وجود احتياطى ينقذ الموقف إذا حدث انكسار.. فالعدو متفوق فى العدد والعدة، وإذا ما التقى الجمعان فقد تتغلب الكثرة.. ولهذا رأى أن يكون لدى المسلمين قوة احتياطية قريبة من مركز القيادة.. وإذا ما اشتد العدو وأبدى تفوقًا، فإن فى استطاعة القائد أن يستنفر أقوامًا من المجاهدين الذين لا يتخلفون عن الجهاد، فيأتى بهم إلى المعركة يرجحون بها الكفة، ويحققون للمؤمنين النصر والغلبة.

هكذا استخدم المسلمون مبدأ السلامة بوجود الاحتياطى الذى لا غنى عنه فى أى معركة قديمة أو حديثة، لأن أية خطة تخلو من الاحتياط هى خطة غير سليمة.. ناقصة.

وقبل أن يبدأ القتال كان المجاهدون قد تم حشدهم فى المكان الملائم والوقت المناسب تمامًا، كما أنهم كانوا على مقربة من مصدر المياه، على حين أنهم حرّموا على قريش مثل هذا المصدر.

فلما ارتحلت قريش وأقبلت على الساحة التى بادر المسلمون بالاستعداد فيها وغرهم أن عدد المسلمين قليل حتى قال قائلهم:

«لقد غرّ هؤلاء دينهم»

ونزلت الآية الكريم:

﴿إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾

كان عدد المسلمين ثلاثمائة وعدد المشركين زهاء الألف أى أن نسبة تفوق قريش كانت ٣: ١.

ولكن.. كانت هناك قوة أخرى كشفتها وقعة بدر، هى القوة المعنوية، التى تحدث عنها كبار القادة فيها بعد ذلك بمئات السنين، ثم جعلوها مبدأ ثامنًا لمبادئ الحرب السابعة.

وفارق كبير بين محارب لا يعلم لأى غرض يحارب، ويخشى أن تكون فى الحرب نهايته، ومحارب يثق تمامًا بهدفه ويدرك جيدا أنه لا محالة حاصل على إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

بدأت المعركة بمبارزات فردية على نحو ما كان مألوفًا فى تلك اللقاءات، وكان أول المتقدمين من المسلمين عبيدة بن الحرث وحمزة وعلى بن أبى طالب.. فانتصر كل منهم على غريمه وقتله.

وقد ناشد القائد ربه النصر، ثم انتبه فجأة وقال لصدّيقه أبى بكر:

«أبشر أبا بكر أتاك النصر».

أى أن القائد الملهم قد أحسّ بإقبال النصر، وخالطه شعور المنتصر.

ودارت رحى القتال واشتد أوار المعركة.

وقال القائد:

«والذى نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة»

.. وإذن، فما الذى يمنع المسلم من الاندفاع والاستبسال حتى الموت، ما دام النصر حليفه، والجنة غاية غاياته.

ومن النماذج المبهرة، ما كان من عمير بن الحمام، وبيده ٥ ثمرات يأكلها.. فألقاها كأنما يتخلص منها وانتزع سيفه وراح يقاتل ببسالة وجرأة حتى وقع قتيلا.. فكان أول قتيل من المسلمين فى بدر.

وانتهت المعركة بهزيمة ماحقة لقريش.

واتجه نفر من المسلمين يلتفون بالقائد فى مقر قيادته خشية أن يعمد الكفار إلى حيلة أو هجمة مباغتة.

وهذا نموذج رائع فى الحفاظ على النصر حتى لا تقع نكسة أو تنجح محاولة خادعة.

وقد عنى المسلمون بجميع الأسرى، فلم يقتلوا أو يعذبوا أحدًا على حين كان البعض يرى أن الإثخان فى القتل أحب من استبقاء الرجال، ولكن القائد قطع فى هذا الأمر بقوله الكريم:

«استوصوا بهم خيرًا»

كذلك استشار القائد معاونيه فى أسيرين كانا أشد الناس عداوة

وإيذاءً للمسلمين، فأشار عمر بقتلهما، ورأى أبو بكر الإبقاء عليهما مع طلب الفدية عنهما.

ونزلت الآية الكريمة:

﴿ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم﴾

كانت هذه الآية تكريمًا للإنسانية، وتعظيمًا لشأن الإنسان، ومبدأ من مبادئ التعامل فى الحروب التى اتفق عليها الجميع فيما بعد، فلا تعذيب للأسرى، ولا امتهان للإنسان.. بل إنه ينبغى أن تعقد فترات هدنة فى إبان المعارك لتبادل القتلى والأسرى،

وأخيرًا.. لعل أعظم ما كشفت عنه وقعة بدر هو أهمية الروح المعنوية والثقة بالهدف ووحدة القائد والجنود.

الدروس المستفادة من معركة بدر:

١ - إن الهدف من المعركة ليس الانتصار العسكرى وحده، وإنما تجريد العدو من ماله وممتلكاته.

٢ - أهمية الشورى وحرية الرأى: فالقائد فى بدر لم يمل على قواته موضع القتال ولا طريقته وإنما استمع لأصحاب الرأى ونزل

عند المحل الأكثر مناسبة، وأخضع الخطة دائمًا للرأى والحرب والمكيدة.

٣ – ابتكار فكرة الاحتياطى: إن أية خطة تخلو من عنصر الاحتياط، هى خطة ناقصة وغير مأمونة وقد نفذت فى «بدر» فكرة بناء عريش للقائد فى موقع مناسب يستطيع منه الحصول على مدد قريب لتعزيز النجاح فى حالة النصر أو التأثير فى الموقف إذا كان ثمة انكسار.

٤ – أهمية الحصول على معلومات عن العدو: وقد أرسل القائد بعثة استطلاع جاءت بأخبار مفيدة، وقبضت على أسيرين أفضيا بمعلومات مهمة عن مكان تجمع العدو، وما كان عليه من عدد وعدة، وبهذا استعدت قوات المسلمين وهى متيقنة من الموقف.

٥ – أهمية التفوق المعنوى: كان عدد المسلمين ثلث عدد المشركين، وكان النصر رهنًا بالصبر والإقدام والبسالة، وتحقق تأثير القوة المعنوية على الرغم من كثرة العدو.

٦ – انتصار الخلق: لقد رفض القائد فكرة «الإثخان فى القتل»، أى الإمعان فى قتل المحاربين والأسرى، اكتفاءً بهزيمة العدو.. وعندما قال عن الأسرى استوصوا بهم خيرًا، فقد أعلن نداء عالميًا أخذت به بلاد العالم المتمدين وتقرر تحريم قتل الأسرى أو تعذيبهم وبذلك وضعت الجندية الإسلامية حدود الحرب المشروعة وأحسنت إلى الإنسانية جمعاء.

٢
غزوة أُحُد

.. وخطرت لأحد الأنصار فكرة
قال:
« يا رسول الله ألا نستعين
بحلفائنا من يهود» ؟
قال القائد:
«لا حاجة لنا فيهم» !

وقعت غزوة أحد فى شهر شوال سنة ثلاثة هجرية. وبين غزوتى «بدر» و«أحد» لم تنقطع أشواط الجهاد ولم تتوقف البعوث والسرايا للاستخبار والاستطلاع والقتال لوقف محاولات قريش وخيانة اليهود، ومنها غزو «بنى قينقاع» من يهود المدينة، الذين نقضوا

العهد الذى كان بينهم وبين المسلمين بعد وقعة بدر[1]. ثم غزوة «بنى غطفان»، الذين كانوا يحشدون رجالاً ويحرضون على الإغارة على المدينة وبذلك كانت السرايا دائمة النشاط لكشف أية محاولة للعدوان وللقضاء على أعمال الفتنة والتحريض والخيانة.. وهى فى تلك العمليات لم تتخل عن خطة الدفاع النفسى، واتقاء المفاجأة، وتحقيق الأمن والتحوط إزاء محاولات العدو المتربص للثأر من هزيمة بدر، والمتطلع إلى الانتقام واستعادة النفوذ والسلطان.

أخذت قريش تستنفر الرجال وتجمع الأموال، وتستعد للثأر والانتقام.. وقال قائلهم:

«لا نريد أن نرجع إلى ديارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه».

وقد تجهزت قريش بالرجال والمال والسلاح وخرجت تنشد

---

(١) فى ذلك نزلت الآية الكريمة:

﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾
«٣٦ - الأنفال»

والمعنى: أن المشركين يريدون العودة إلى قتال المؤمنين وصدّهم عن دينهم، ولذلك جمعوا الأموال، وأنهم لينفقونها لهذا الغرض. ولكنها ستذهب هباء وسوف يتحسرون على ضياعها لأن نتيجة عدوانهم هى الهزيمة، كما أن نهايتهم ستكون إلى جهنم.

القتال الذى أعدت له ثلاثة آلاف رجل ومائتى فرس، وثلاثة آلاف بعير، وتحركت هذه القوات الكثيفة إلى الأبواء ثم «العقيق» قاصدة المدينة، ونزلت فى سفح جبل أحد على مسافة خمسة أميال من المدينة.

ولما بلغت أنباء هذا التحرك لقريش، فقد استبشر خيرًا بالزمن والمكان، وقال:

«إن أُحدًا جبل يحبنا ونحبه»

واجتمع القائد بكبار أعوانه يعرض عليهم الموقف ويشاورهم فى هذا الأمر الجليل ويستعرض وإياهم طرق الحل المفتوحة.

هل يتخذ المسلمون خطة الدفاع، أو يبادرون بالحركة؟

أى هل يبقى المسلمون فى المدينة، تاركين للمشركين مشقة السير إليهم، حتى إذا أقبلوا وقد أنهكهم الطريق بادر المسلمون بلقائهم وإفساد محاولتهم وتلقينهم درسًا بليغًا.

قال القائد:

«فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم»

قال أحد المجاهدين:

«اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنا منهم وضعفنا»

أى: اتخاذ المبادأة والخروج للقاء العدو حيث نزل وقد رجح هذا الرأى، ولبس القائد لأمته: أى عدة الحرب.

وخشى أصحاب هذا الرأى أن يكونوا قد غلبوا رأيهم.. قالوا:

«يا رسول الله، استكرهناك.. ولم يكن لنا ذلك..

فإن شئت فاقعد.

قال:

«ما ينبغى للنبىّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل»

أى أنه: لا رجعة بعد اتخاذ القرار.

وهكذا وضع السلف الصالح الأصول الصحيحة والتقاليد التى رسخت فيما بعد: حرية الرأى.. الشورى.. الديمقراطية.

كانت وجهة نظر القائد: الدفاع

وكانت وجهة نظر الأغلبية: المبادأة.. أى العمل التعرضى.. الهجوم.. وقد أخذ القائد بوجهة نظر الأغلبية.. أنهم يثقون بإيمان القائد وسعة فكره وقوة عزيمته، وأنهم ليخشون أن يكونوا قد أثروا بأى شكل فى رأيه، فكانت إجابته حاسمة:

لا رجعة بعد صدور القرار.

أى أن التفكير والمشورة وإبداء الرأى، حريات مكفولة للجميع ومتاحة للمناقشة والمراجعة، إلى حين يتخذ القرار.. ومتى صدر القرار، فلا مجال للتراجع أو التردد.. وألا تكون العواقب وخيمة!

إن قريشًا قد تجمعت واستعدت واتخذت مكانها الذى وجدته مناسبًا فوضعت فيه رجالها ومواردها كافة، لكى تضرب ضربتها وتثأر لهزيمتها فى «بدر» فتستعيد مكانتها، وتسترجع نفوذها، وتؤمن طريق تجارتها.

وأرسل القائد بعوث الاستخبار، فعادت بمعلومات مؤكدة عن الحشد والأرض والاستعدادات.

وتحرك جيش المسلمين وقوامه ألف محارب.

وفى الطريق إلى ساحة المعركة حدثت عدة مواقف تستدعى الانتباه، وتحفل بالدروس والعظات.

١ - إن الجماعة التى كان رأيها الإقامة فى المدينة والأخذ بموقف الدفاع، قد ساورها القلق وشغلها تسليم القيادة بحكم الأغلبية وران على أفرادها خشية الهزيمة، وقال لسان حال هذه الجماعة.

«عبد الله بن أبى: أطاعهم وعصونى.. ما ندرى علام نقتل أنفسنا» أى أن هناك نفرًا غلب عليهم التردد والخوف والاعتداد بالرأى.. فآثروا الانسحاب.. ومثل هذا التردد وهذه الحال من فقدان الحماسة لا ينبئ بخير، ومهما يكن من تخلف بعض الرجال، فهو أفضل من بقائهم، ولذلك قال القائد:

«إنها طيبة، وإنها تنفى الخبيث كما تنفى النار خبث الفضة»

أى مثلما يتخلص المعدن الأصيل من الشوائب، فيتحقق النقاء

ويبقى الجوهر سليمًا نقيًّا.

٢ - عندما انشق المخالفون - وكان عددهم ثلاثمائة - اختلف المسلمون فى أمرهم، فقالت جماعة: نقتلهم! وقالت جماعة: نتركهم حتى كادت الجماعتان تقتتلان!؟

ونزلت الآية الكريمة:

﴿فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾[١].

واستقر الرأى على ترك الجماعة المنشقة المتخاذلة تعود من حيث أتت.

٣ - جاءت لبعض الأنصار فكرة.. قالوا:

«يا رسول الله ألا نستعين بحلفائنا من يهود»

قال القائد:

«لا حاجة لنا فيهم»

أى أن القائد لم يتأثر لخروج جماعة كبيرة غير مخلصة، وهو موشك على اشتباك حاسم.

---

(١) «٨٨ - النساء» والمعنى: لقد تخلف المترددون المنافقون فكيف يختلفون فى أمرهم، وقد ارتدوا إلى الكفر بعد الإيمان. إن إيمانهم غير صحيح فهم فى حكم الكفرة.

.. ومع ذلك، فإنه لا يقبل أن يضم للصفوف جماعة أخرى غير موثوق بها، وخاصة بعد أن أثبتت التجارب السابقة خيانة اليهود، فهم لا يثبتون على مصالحة، ولا يعترفون بأية مهادنة، وأنهم ينظرون إلى مصالحهم وحسب.

فليس الأمر فى الحرب للعدد والعدة، ولكن لوحدة الرأى واجتماع التصميم وقوة الاقتحام، ولذلك فقد أحسن المسلمون بالتخلص من الجماعة واهنة العزم، فاقدة الهمة كما استبعدوا مقامرة الاستعانة باليهود.. وتقدمت قواتهم تحت راية واحدة، تقدم رجل واحد، وتلك سمة جيوش النصر.

وواصل رجال النضال تحركهم فى خفية عن نظر العدو، حتى بلغوا موقعًا قريبًا فى عروة الوادى واستندوا إلى جبل أحد حيث توزعت القوات والواجبات وتقرر عدم بدء الاقتحام قبل أن يصدر القائد أمره: أى فى ساعة الصفر كما أطلق عليها فى العصر الحديث.

وكان فى مقدمة استعدادات المسلمين للمعركة تجهيز خمسين فارسًا على صهوة جيادهم بقيادة عبد الله بن جبير لحماية جيش المسلمين من حركة التفاف للعدو:

«انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا»

وثمة أمر آخر صدر لقائد فرسان الحماية:

«اثبت مكانك لا تؤتين من قبلك»

أى لا تبارح، ولا تتعد حدود مهمتك وهى تثبيت العدو، وحاذر أن يأتى من خلفك.

ذلك هو مبدأ الوقاية، أى حماية القوات الرئيسية.

وعلى الجانب الآخر من ساحة القتال المرتقب، كانت قريش قد حشدت ثلاثة آلاف رجل، بينهم مائتا فارس، وكان على ميمنة الخيل محارب فذ هو خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل، وبدأت المعركة - كما كانت عادات ذلك الزمن - مبارزات فردية، فتقدم حاملا اللواء من كل فريق فتقاتلا، وانتصر صاحب لواء المسلمين.

وخرج من جانب العدو سعيد بن أبى طلحة فنادى:

«أنا قاصم من يبارزنى»!

«يا أصحاب محمد: زعمتم أن قتلاكم إلى الجنة.. وأن قتلانا إلى النار.. كذبتم واللات.. لو تعلمون ذلك حقًّا لخرج إلىّ بعضكم»

إن الذى تقدم إلى المبارزة بجرأة بالغة هو سعيد بن أبى طلحة، أحد المغاوير المعروفين بالشجاعة والقوة.

وإذا على بن أبى طالب يقتحم الموقف، فيتضاربا.. ويضربه علىٌّ ضربة قاضية فيقتله شر قتلة!

ثم بدأت الحرب وحمل المسلمون على المشركين فنهكوهم ضربًا وطعنًا وكان هذا انتصارًا سريعًا ومبهرًا، لأن عدد المسلمين كان ثلث عدد المشركين، وذلك بفضل القوة المعنوية.. ومن ذلك أن القائد مد سيفه فى أثناء احتدام القتال وسأل أعوانه: من يأخذ هذا السيف بحقه؟

فأسرع إليه «أبو دجانة» متلهفًا:

«وما حقّه يا رسول الله»؟

قال القائد: أن تضرب به فى وجه العدو حتى ينحنى!

قال أبو دجانة: «أنا له يارسول الله بحقه».

ثم راح يعمل الضرب والقتل فى صفوف العدو. وذلك مثل فى الشجاعة التى تصنعها الحماسة.. كما كان المثل الذى ضربه حامل اللواء، والمثل الذى ضربه على بن أبى طالب.. وكلها ظاهرات أمانة وثقة، ودلائل إقدام وروح معنوية عالية.

وقد عجب الزبير بن العوام، المعروف ببسالته وبقربه من القائد لأنه لم يخصه بسيفه، وعرضه على الجميع فسارع بأخذه أبو دجانة، وراح يستعرض مع الآخرين ما فعله صاحب سيف النبى القائد، فإذا به يخرج عصابة حمراء عصب بها رأسه وقالت الأنصار أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وخرج وهو يترنم بقوله:

أنا الذى عاهدنى خليلى ... ونحن بالسيف عند النخيل

ألا أقوم الدهر فى الكيول ... أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يلقى أحدًا إلا قتله!

ومن مآثر أبو دجانة أنه فى أثناء ثورته بالسيف، كاد أن يصيب امرأة هى هند بنت عتبة، فإذا به يرفع عنها السيف قائلاً:

«أكرمت سيف رسول الله أن أضرب به امرأة»

ولكن.. حدث ما لم يكن متوقعًا.. بعد هذا الانتصار الباهر

إن النصر الذى أحرزه المسلمون لم يحافظوا عليه، ولم يتخذوا حذرهم، فمن الأمور الحيوية تعزيز النصر، حتى لا تحدث ردة أو يجرى انقلاب فى الموقف، قبل القضاء النهائى على العدو(١).

لقد لعب النصر بالرءوس، وجرى بعض المحاربين وراء المغانم، وأغرت المغانم الرماة الذين أوصاهم القائد بالثبات وكلفهم بمهمة الوقاية. فطلبوا من قائدهم عبيد الله بن جبير أن يتركهم يأخذون نصيبهم مما ترك العدو، فقال فى حزم:

«لا أجاوز أمر رسول الله بغنى»

«أى أن المغانم لا تلهينى عن المهمة الرئيسية التى كلفنى بها القائد»

ولكن أكثرهم خالفوه وقال قائلهم:

«لقد انهزم المشركون فما مقامنا ها هنا؟»

وهكذا انفتحت الثغرة وضاع مبدأالوقاية أو السلامة، وانكسر «الضبط والربط» وانقلب ميزان المعركة.

---

(١) لنابليون قول مأثور: إن أعظم الأخطار يتهددنا فى لحظة الانتصار.

ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة المدافعين، وهو الفارس اللماح والمقاتل الجسور، فانتهب الفرصة وكرّ بالخيل على من بقى من الرماة، وأدار فيهم الضرب والقتل حتى استشهد قائدهم عبد الله بن جبير، وساء الموقف، وذاع أن الرسول القائد قد لقى حتفه!

وهنا أطبقت الهزيمة على جيش المسلمين، على حد وصف موسى بن عقبة:

«لما فقد رسول الله ﷺ أى انقطعت أخباره وسط الهوجة. قال أحدهم إن رسول الله ﷺ قد قتل فارجعوا إلى قومكم - أى إلى قريش فيؤمنوكم، قبل أن يأتوكم فيقتلوكم، فإنهم داخلو البيت وقال آخر: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا» وقال ثالث يرد على هذه الأقوال المستخذية المتخاذلة:

«إن كان رسول الله ﷺ قد قتل.. أفلا تقاتلون على دينكم وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله عز وجلّ شهداء».

وفى وسط هذه الربكة، وساعة الحرج.. ظهر القائد! لقد ثبت وثبت معه أربعة عشر رجلاً من أصحابه! أى أن القتال كان قد بلغ مقر القيادة وخلص العدو إلى القائد، فقد قذفه عتبة بن أبى وقاص بحجر فأصابه وشج وجهه وكلمت شفته، ووقع فى حفرة فأخذ بيده على بن أبى طالب وطلحة بن عبد الله حتى استوى قائماً.

ونزع أبو عبيدة بن الجراح الحلقات التى أصابت وجه القائد، وترّس أبو دجانة يحميه، فكان النبل يصيب ظهره، وهو لا يريم.

واستمر حماة القائد على موقفهم الشجاع وصدهم المعتدين فكان سعد بن أبى وقاص يرمى السهم فلا يخطئ.. وأدرك المسلمون أن القائد بخير، ثم أحدث ظهوره فى قلب المعركة أثرًا قويًا، فعاودوا القتال بشجاعة وجرأة، وأخذ ميزان المعركة يعود برجحان كفة المسلمين، الذين استطاعوا استعادة زمام الموقف والقضاء على آخر محاولة لبنى قريش، الذين أطبقت عليهم الهزيمة فركنوا إلى الفرار.

وانتهت معركة أحد بعد تأرجح شديد بين النصر والهزيمة، وقد كشفت عن ثغرات عديدة فى جيش المسلمين، وفى مقدمتها إهمال مبدأ الوقاية، وإرباء الغنيمة عن الصبر والثبات، ثم إنها معركة تحولت من الهزيمة إلى النصر فى أشد الظروف وأحرج المواقف.

أى أنه لا هزيمة إذا ما ظلت العزيمة مشتدة، وأن النصر رهن بالصبر والثبات.

إن وقعة أحد هى - بحق - معركة القوة المعنوية.

الدروس المستفادة من معركة أحد:

١ - انتصار القوة المعنوية، على القوة العددية. فقد كان عدد المسلمين تسعمائة، فى حين كان عدد المشركين ثلاثة آلاف.

٢ - النصر رهن بالصبر والثبات. وقد استطاع المسلمون

بثباتهم، والتفافهم حول قائدهم، وإيمانهم بحقهم، أن يحولوا الهزيمة إلى نصر..

٣ - الحرب لا يصلح لها إلا المكيث: وقد أثبت خالد بن الوليد اللماحية واغتنام الفرصة التى لاحت له، حين تركت جماعة الحماية موقعها جريًا وراء المغانم، فسارع بشن هجمة ضارية كاد أن يحقق بها انتصارًا باهرًا بعد هزيمة مريرة.

٤ - مبادئ الحرب هى عوامل النصر، وفقدان أحدها قد يقضى بالهزيمة. ولا ريب أن مبدأ «الحماية» لم يتحقق، حين خالفت الجماعة المكلفة بوقاية القوات الرئيسية الأوامر التى أعطيت لها. وفتحت الثغرة لتدفق العدو حتى كاد يظفر بالفوز.

٥ - شرف الجندية الذى يقضى بالثبات على المبدأ، ويجلب العار على دعاة التردد والهزيمة والجبن والخيانة.. وقد أحسنت قيادة المسلمين حين تخلت عن المارقين والمنافقين، وحين استبعدت الاستعانة باليهود المطبوعين على الخيانة ونقض العهود.

٦ - وحدة القيادة والجيش: لا خير فى جيش يرفع علم العقيدة والإيمان فى حين يرتفع علم آخر للغدر والخيانة، ولا أمل فى جيش تختلف فيه الآراء وتتعدد المذاهب.

٧ - الهجوم خير وسائل الدفاع: لقد كان المسلمون وهم يتأهبون لخوض معركة أُحد، يتنازعهم الرأى بالمبادأة أو الانتظار، وقد رأت الأغلبية رأى القيادة فى التحرك والأخذ بالعمليات

التعرضية، وانتهى ذلك الرأى إلى الانتصار. ولذلك قيل إن الهجوم هو خير وسائل الدفاع، وإنه فى حالة اتخاذ خطة الدفاع فلابد أن تكون منطوية على عمليات هجوم، وخاصة عندما ينجح الدفاع فى صد المهاجمين.

٣

غزوة الخندق

﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصارُ وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ❊ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدًا ❊ وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا ❊ وإذ قالت طائفة منهم يٰأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارًا ❊﴾

«١٠ - ١٣ - الأحزاب»

وقعت غزوة الخندق فى شوال سنة خمس هجرية وقد كانت - على قدم العهد بها، وقلة عدد المشتركين فيها وبساطة الأسلحة التى استخدمت - نموذجًا للعملية الدفاعية المتقنة، يقوى فيها الدفاع إلى

حد صد القوات المعتدية وإضعافها، ثم التحول من الدفاع إلى الهجوم تقريرًا للنجاح واستكمالاً للنصر.

وقد مهّد لغزوة الخندق وأثار غبارها اليهود الذين دأبوا على مناوأة المسلمين وبث المكايد والفتن، وممارسة نقض العهود، وخاصة بعد النصر المؤزر الذى أحرزه المسلمون فى وقعة بدر الكبرى.

وكانت خطة اليهود تقوم ظاهريًا على محالفة المسلمين خشية بأسهم، ثم تملق المشركين وإثارتهم وحفزهم على الخلاف إعمالاً لمبدأ فرقْ تسدْ، أو تدع الخصمين يقتتلان وفر أنت بالأسلاب والغنائم.

وقد تنبه قائد المسلمين لما برع فيه اليهود من حيل ومكايد، فلقنهم درسًا بليغًا فى غزوة بنى قينقاع، ثم فى غزوة بنى النضير، ولم يكن يأمن شرهم أو يطمئن إلى عهودهم أو يصدق توبتهم. ولهذا فقد رفض الرأى الذى قال به بعض رجاله فى الاستعانة باليهود فى غزوة أحد قائلاً فى حزم وحسم: «لا حاجة لنا فيهم».

ولم يتورع اليهود فى مواصلة الوقيعة بين المسلمين وقريش، بل أسرفوا فى إثارة قبائل العرب وزينوا لخصوم المسلمين أن يتآلفوا ويتحالفوا.. ومن نماذج أساليبهم فى الخداع والخيانة ما أجمعت عليه بعض المر جق من أنه فى أحد الاجتماعات بين اليهود ومعشر قريش، أن أحدهم قال: «يا معشر يهود. إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه.. أفديننا خير أم دينه؟» يقصدون دين محمد ﷺ.

قال اليهودى إمعانًا فى الرياء والتملق، بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه[1].

وهكذا نجح اليهود فى حفز وتجميع أعداء المسلمين بغية الانتقام من وقعة بدر والعمل على دحر جيش المسلمين.

وقد تم حشد ما يقرب من عشرة آلاف رجل من قريش والقبائل الأخرى المناوئة، مما أطلق عليه تحالف «الأحزاب» وقد تجمعت له الأعداد الآتية:

٤٠٠٠ من قريش تحت لواء عثمان بن طلحة.

١٨٠٠ من الفرسان وراكبى الجمال تحت لواء أبى سفيان بن حرب.

٧٠٠ من بنى سليم، يقودهم سفيان بن عبد شمس.

١٢٠٠ من بنى أسد، يقودهم طليحة بن خويلد.

١٠٠٠ من فزازة، يقودهم عيينة بن حصن.

٤٠٠ من أشجع، يقودهم مسعود بن دخيلة

٤٠٠ من بنى مرة، يقودهم الحرث بنى عوف.

---

(١) وفى ذلك نزلت الآية الكريمة:

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرًا *﴾

«٥١، ٥٢ – النساء»

وتولى قيادة هذا الحشد الكبير أبو سفيان.

وقد جاءت استخبارات المسلمين بأنباء هذه الاستعدادات الواسعة والحشد الكبير، فاجتمع القائد بصحبه وشاورهم فى الأمر الخطير، إذ يوشك العدو أن يزحف على المدينة. وقد استقر الرأى على اتخاذ خطة الدفاع، وإنشاء خندق يحول دون تقدم العدو ومناجزته وتعويقه وإضعاف عزيمته، ثم التحول إلى الهجوم عليه والنيل منه.

وسرعان ما أخذ فى حفرالخندق، وكانت عملية شاقة كلفت الكثيرين من المجاهدين عناءً كبيرًا تحملوه فى صبر، وطال بهم المقام. على حين ظهر الإعياء على البعض، ممن لا يطيقون بذل الجهد الكبير الذى يتطلبه مثل هذا العمل الهائل، وممن لا يقدرون مسئولية الدفاع عن الدين والحمى والعرض والأرض.. وهكذا الجهاد يكشف عن معادن الناس، والحرب لا يصلح لها غير أولى العزم والقوة والثبات.

وفى ذلك نزلت الآيتان الكريمتان:

﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيمٌ * لا تجعلوا

دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا، قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾[1].

فى أتون الحرب اختبار لمدى الإيمان، وما لدى المحارب من قوة العزم وشرف الجندية، وقد وضح أن بعض المحاربين لم يكونوا على القدر المنشود من الإخلاص والحمية، فشرعوا فى مغادرة الموقع زاعمين أن ذويهم بحاجة إليهم، أو أن غيابهم فى الميدان مفسدة لبيوتهم ثم إنهم فى خطابهم إلى القائد أو حوارهم معه لم يكونوا على مستوى العلاقة بين الجندى وقائده، الأمر الذى يتنافى مع الخلق وتبرأ منه الجندية.

وقد استطاع جيش المسلمين أن يحفر الخندق ويستكمل الأعمال الضرورية فى تجهيز خطة الدفاع، وتم توزيع الجنود فى المواقع المناسبة وكانوا يتشكلون فى لواءين: لواء المهاجرين، بيد زيد بن حارثة، ولواء الأنصار بيد سعد بن عبادة، ومجموع الجنود ثلاثة آلاف أى أن نسبة قوات المسلمين إلى أعدائهم كنسبة واحد إلى عشرة.

كذلك نجح القائد فى تطبيق مبدأ السلامة الذى تخلف عنه

---

(١) النور، ٦٢، ٦٣ – النور.

المسلمون فى وقعة أُحد، فجعل على حراسة المدينة ثلاثمائة محارب.

وعندما تقدمت قريش وحلفاؤها فوجئوا بالخندق، وقال قائلهم:

«والله إن هذه لمكيدة، ما كانت العرب تكيدها».

وهذا يعنى التجديد فى الأسلوب والابتكار فى عمليات صد العدو وإفساد خططه.

وجال بفكر قائد المسلمين خاطر الاستعانة بقبائل أخرى أو إغراء بعض الرجال للتخلى عن هذا التحالف، وعقد صلح خاص معهم، وعرض على معاونيه هذا التصور لكى يستطلع رأيهم ومنهم سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، قال أحدهما:

«يا رسول الله أأمرًا تحبه فنصنعه، أم شيئًا أمرك الله به لابد لنا من العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا؟»

قال القائد:

بل شىء أصنعه لكم. والله ما أصنع ذلك إلا أنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما.

قال سعد بن معاذ:

«يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا ثمرة إلا قرى أو بيعًا. فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، ما غرنا بك

وبه.. نعطيهم أموالنا!؟ ما لنا بهذا من حاجة.. والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم».

قال القائد: «فأنت وذاك»

وأعطاه الصحيفة التى كان قد أعدها للتفاهم والمصالحة فمحا ما فيها وقال: ليجهدوا علينا.

معنى ذلك باللغة الحربية الحديثة: أن قائد جيش المسلمين حين ألقى نظرة على الموقف وقدر قوة العدو فقد بدأ يفكر فى خطة لتجنب الهزيمة، وهو يرى العدو متفوقًا فى العدد والعدة والخيل والإبل، وأن العدو يتخذ خطة الهجوم لغزو المدينة، وله حرية الحركة والمناورة، وأنها معركة ثأر اجتمعت لها قبائل عديدة تحالفت وصممت على غزوة كبرى.

كما أنه رأى - بالنسبة لجيش المسلمين - قلة العدد، وفقدان ميزة المبادأة وحرية التحرك وضعف الروح المعنوية، إذا ما طال أمد الحصار خاصة وأن عددًا من القوم لم يتموا فهم دينهم ولم يبلغوا من الإيمان ما يشد أزرهم ويستوجب ثباتهم.

وكان رأى القائد أن يؤجل المعركة بدعوة بعض القبائل إلى فك التحالف مع قريش، مقابل إغرائهم بالمال والمعايشة، ولكنه لم ينفرد باتخاذ القرار، وإنما استشار كبار معاونيه، وأجرى حوارًا معهم مستعرضًا الموقف من الجانبين.. وقد خالفوه فيما عرض، وكان رأيهم مواجهة الموقف بحزم وشجاعة والمضى فى المعركة.. ولقد صدقوا

القول وكشفوا عن متانة معدنهم وقوة عزمهم، فوافقهم وأخذ برأيهم، ونعمت الحرية ونعمت الديمقراطية.

وأقبلت قريش وحلفاؤها يثيرون الغبار، ويستعرضون القوة ويرسمون خطة الحصار، ويعدون عدة الثأر والانتصار.

وتقدمت قوة تختبر هذا المانع الكبير: الخندق.. وتحاول اقتحامه في موضع ضيق فأسرعت قوة باسلة يقودها على بن أبي طالب فأخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم وأعملوا فيها القتال حتى ردوهم على أعقابهم مثخنين بالجراح.

وعندما بدأت المبارزات الفردية ظهر أحد أشداء الكفار «عمرو بن عبد ود» وكان مشهورًا بالخيلاء والعجب، وتقدم مبديًا القوة داعيًا للانتقام، فتحرك على بن أبي طالب وناشد القائد أن يوافق على قبوله التحدى وقال: أنا له يا رسول الله

قال القائد معترضًا: اجلس.. إنه عمرو!

ثم راح عمرو يتمخطر متباهيًا وواثقًا من أن أحدًا لايجرؤ على منازلته:

«أين جنتكم التى تزعمون أن من قتل منكم
داخلها.. أفلا تبرزون لى رجلًا»

وهنا تقدم على من القائد راجيًا وملحا: أنا له يا رسول الله قال القائد: اجلس.. إنه عمرو!

ثم صاح عمرو صياح الغلبة والفخار:

ولقد بححت من الندا ء بجمعكم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشجـ ـع وقفة الرجل المناجز
وكـذاك إنى لم أزل متسرعًا قبـل الهزاهـز
إن الشجاعة فى الفتى والجود من خير الغرائز

.. وهنا قام على للمرة الثالثة وقال: أنا له يا رسول الله.

قال القائد: إنه عمرو.

قال على: وإن كان عمرو.

قال القائد: إذن امض له.

ومشى على بن أبى طالب وهو يردد فى تؤدة وثبات:

لا تـعـجـلن فـقـد أتـا ك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نـيّـة وبـصـيـرة والصدق منجى كل فائز
إنى لأرجـو أن أقـيـ ـم عليك نائحة الجنائـز
من ضـربـة نجـلاء يبـ ـقى ذكرها عند الهزاهـز

فقال عمرو، من مكانه: من أنت؟

قال: أنا على.

قال عمرو: ابن عبد مناف.

قال على: أنا على بن أبى طالب.

قال عمرو: غيرك يا بن أخي.. من أعمامك من هو أسنّ منك، فإنى أكره أن أهريق دمك.

قال علي: ولكنى والله ما أكره أن أهريق دمك.

وهنا أبدى عمرو غضبه وسل سيفه «كأنه شعلة نار» ثم اقتحم الموقع مكشرًا عن أنيابه، ودار القتال على أشده.. وأبدى عليّ ما أبدى من قوة وشجاعة حتى صرع خصمه المخدوع، وسقط عمرو بن عبد ود مضرجًا بدمائه غير مأسوف عليه.

وفى مثل هذا اللقاء الشديد تتضح قيمة الإيمان وفضل الشجاعة للفرد أو الجماعة.. وهنا تكمن القوة الحقيقية ويظهر البأس الشديد.

لم يختلف القادة من قبل ومن بعد، ولم يشهد المؤرخون فى الماضى والحاضر، أن القوة المعنوية فى مقدمة أسلحة الحرب أو أن أهم أسلحة الحرب هم الرجال ذوو البسالة والنبل، وإنما المعارك لا يمكن أن تكتسب بغير شجاعة الرجال وتصميمهم الحازم على الغلبة والفوز.

انظر إلى تصميم الجندى فى دعاء سعد بن معاذ:

«اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا
فأبقنى لها، فإنه لا قوم أحب إلى أن أجاهد من قوم
آذوا رسولك وأخرجوه وكذبوه.

اللهم إن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم ،فاجعل
لى الشهادة ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة».

إن الشجاعة المادية والمعنوية وتفضيل الموت على العار، هى جوهر الحرب وعدة النصر.

في تلك المعركة الكبيرة - معركة الخندق - كان سلاح العرب الإيمان: فقد كانوا أقل عددًا من خصومهم، ولم يكن لهم مثل هذا الكم من الفرسان، وذاك القدر من الأموال، وأنهم عندما اتخذوا خطة الدفاع، وحفروا الخندق، فقد كان ابتكارًا وإن كلفهم كثيراً من الجهد والعناء.. ولم تستطع قريش إلى اجتياز هذا الحاجز المانع سبيلا وأسفرت الهجمات التى حدثت عن إخفاق وعجز، وضاعت هباء محاولاتهم يومًا بعد يوم، حتى أيقن أبو سفيان وقادة ألويته أنهم يقيمون أمام الخندق بلا جدوى ولا أمل، حتى اشتد عليهم الشتاء وأنذر بريحه وأمطاره، فى حين كان المسلمون يلوذون بالخندق وهم قريبون من ديارهم وقادرون على المضى فى دفاعهم أمدًا طويلاً دون عناء كثير.

ومضت الأيام والمدافعون مرابضون فى مواقعهم، والمهاجمون غير قادرين على تخطى الخندق، وقد بدأت ريح الهزيمة تغشى نفوسهم بعد أن طال بهم المكث، وعز عليهم الثبات وتفكك عرى التحالف، وانفض تجمع الأحزاب.

وفكر اليهود فى حيلة لتعديل الموقف، وأرسلوا إلى بنى قريظة سرًا لكى ينضموا إلى قريش مقابل إغراءات ووعود، والتقى حيىّ ابن الأخطب، وكعب بنى أسد فانتقل اليهود من جانب المسلمين إلى جانب المشركين فى أشد أدوار المعركة، بل فى لحظة تقرير مصيرها.

وبلغت أخبار الخيانة قيادة المسلمين فأرسل القائد بعثة لتقصى الحقيقة والتقوا بكعب فإذا به يفاجئهم بقوله:

«من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين «محمد» ولا عقد!

وكان لهذا الانقلاب أثر شديد فى المعسكرين فالأحزاب استعادت معنوياتها وعاودها الأمل.

أما المسلمون فقد كان وقع الخبر أليمًا، وخاصة أن المعركة كانت قد أوشكت على نهايتها بانسحاب الأحزاب.

واشتد القتال بين الخصمين طوال عشرة أيام مريرة.

وكان لانسحاب اليهود أثر فى تشدد المسلمين وتصميمهم على مواصلة القتال، وساعدت الطبيعة فى تقرير مصير المعركة، إذ هبت عاصفة شديدة بليل، وهطل المطر غزيرًا، فانهارت ملاجىء الأحزاب وخالطهم الرعب، ولم يستطيعوا الصبر والثبات، وكان فى مقدمة المفارقين المنسحبين طليحة بن خويلد حامل لواء بنى أسد الذى نادى قومه: إن محمدًا ﷺ قد بدأكم بالشر.. فالنجاة .. النجاة!

ووقع اليأس فى قلب أبى سفيان فقال لمن معه:

«يا معشر قريش.. إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام.

ولقد هلك الكراع - أى الخيل - والخف (الإبل) وأخلفتنا بنو قريظة. وبلغنا منهم ما نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون

ما يتمسك لنا بناء، لا تثبت لنا قدار، ولا تقوم لنا نار.. فارتحلوا فإني مرتحل» أى أن قريشًا وحلفاءها لم يصبروا على الشدة، ولم يثبتوا فى وجه العاصفة، ولم يعرفوا الصبر على المكاره.. وإنما أخذت نفوسهم تطير شعاعًا، وهم الذين كانوا يتظاهرون بالقوة ويتفاخرون بالكثرة ويعتدون بتحالف الأحزاب.. ولم يمض الوقت حتى حكموا أنفسهم بالهوان قبل الهزيمة، وارتضوا من الغنيمة بالإياب.

وهكذا انتهت معركة الخندق من غير قتال شديد، وإنما بفضل الصبر والثبات والبسالة التى كان عليها جيش المسلمين، وانصرفت الأحزاب عن الخندق، وانتقل المسلمون من الدفاع إلى الهجوم، فإن الدفاع لا يبلغ غايته إلا إذا تحول إلى الهجوم، وبه يمكن تعزيز النجاح واستكمال هزيمة المرتدين.

وقد نشط المسلمون بعد أن ظلوا صابرين فى حومة الحصار خمسًا وعشرين ليلة، لم يقع خلالها سوى تراشق ب لنبف والحجارة، وأخفقت كل محاولة للأحزاب أن تتخطى ذلك المانع الصعب أو تقوى على زحزحة المدافعين عن ثباتهم وتصميمهم حتى إذا مالت كفتهم فى ميزان المعركة تحولوا من الدفاع إلى الهجوم وتلك هى الخطة المثلى لاستكمال أسباب النصر النهائى[1].

---

(١) يطلق على هذه العملية فى الحرب الحديثة اسم: الدفاع الهجومى، =

فى وقعة الخندق باءت محاولات المشركين بالإخفاق وتعرضوا للبقاء فى العراء أيامًا وليالى بين قسوة متطلبات الحرب واشتداد حالة الجو، مما اضطرهم إلى الانصراف، غير أنهم لم يكونوا أحرارًا فى انسحابهم، إذ بادر المسلمون إلى شن عمليات هجومية كبدتهم خسائر فادحة، وأنزلت بهم هزيمة ساحقة، وسارع اليهود بطلب شروط التسليم، والنزول على حكم رسول الله، ونزلت فى الخندق وبنى قريظة آيات بينات:

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا * ولما رءا المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا * من المؤمنين رجال صدقوا ما عهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا * ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورًا رحيمًا * وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفى الله

= أى الدفاع الذى يبدأ بتعويق العدو وتثبيته وتكبيده الخسائر حتى إذا بدأ فى تراجعه وأزمع انسحابه، انطلقت قوات الدفاع من مكامنها وبدأت عملية هجوم على العدو المتراجع، لأن الهجوم هو الذى يفصل فى المعركة ويحقق النصر الكامل.

المؤمنين القتال وكان الله قويًّا عزيزًا﴾ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقًا تقتلون وتأسرون فريقا ﴾ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضًا لم تطئُوها وكان الله على كل شىء قديرا ﴾﴾[1].

وقد انتهت معركة الخندق باستسلام بنى قريظة، وانهيار آمال ومعنويات قريش، وفقدها بأسها وخيلاءها.. وسجل تاريخ الجهاد العربى ما كان لمعركة الخندق من أهمية حربية، ونتائج باهرة فى تقويض قوى قريش ودحر اليهود وتفرق الأحزاب، وانتقال الدفاع الصامد إلى هجوم باسل لتحقيق النصر، وإخماد محاولات العدو.

الدروس المستفادة من وقعة الخندق:

١ – لا يكون الدفاع ناجحًا إلا إذا تضمن خطة للهجوم تحقق هزيمة العدو وتحطيم إرادته.

وقد اتضحت صحة ذلك بتحرك قوات المسلمين من مواقعها الدفاعية على أثر انسحاب الأحزاب، فحاصرت بنى قريظة حتى أجبرتها على الاستسلام.

٢ – أهمية استخدام مبدأ الوقاية (السلامة) كان لانسحاب

---

(١) ٢١ – ٢٧ – الأحزاب.

بنى قريظة أثر سيئ، إذ تعرضت قوات المسلمين للخطر، وكادت المعركة تقضى على المسلمين بهزيمة غادرة.

٣ - أهمية استخدام مبدأ الحشد (التجمع).

قرر القائد حشد قواته فى موقع غير مناسب للعدو، إذ كانت قريش تتوقع أن تحدث المعركة فى أحد حتى تثأر لهزيمتها وتنتقم مما حل بها، ولكن قيادة المسلمين اختارت خطة الدفاع عن المدينة، وحفرت الخندق لتحول دون تقدم المشركين فكان الحشد فى الموقع الملائم للمعركة.

٤ - أهمية استخدام مبدأ المفاجأة.

وذلك بما أقدمت عليه قيادة المسلمين فى حفر الخندق، وكان عملاً جديدًا ومفاجئًا وغير متوقع للعدو الذى هاله الموقف حتى قال قائلهم:

«والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها».

٥ - حرية الرأى والديمقراطية فى جيش المسلمين.

فقد كان القائد لا ينفرد بالرأى بل يشاور رجاله فى كل ما يعن له ويستمع لرأيهم، ويوافق علو ما تشير به أغلبيتهم، كما كان القائد أسوة لجنوده يجلس معهم كأحدهم ويشترك وإياهم فى حفر الخندق بيديه.

إن الجنود - كل الجنود - يتأثرون بالقائد ويحذون حذوه، وقد صدق من قال: كيفا يكن القائد يكن الجنود.

الجيش الإسلامى بعد محمد ﷺ

لتقدير شأن قائد من قادة الجيوش، ووضعه فى مكانه من قائمة كبار العسكريين فى التاريخ، ينبغى الأخذ بالمقياس العادل الذى لا يحيد، والذى توفرت له ميزات وخصائص القائد الجيد، ومدى استخدامه لمبادئ الحرب المتفق عليها، وأيضا ماذا كانت نتائج عبقريته العسكرية بالنسبة لوطنه وللإنسانية جمعاء.

هل كان هذا القائد حائزًا على الصفات اللازمة للقائد العظيم، المعنوى منها كالشجاعة والإخلاص والفطانة، والمادى منها كالمعرفة والمعاملة والكفاءة والاحتمال..؟

هل كان يحارب حربًا مشروعة، وقد سلم سيفه من مغبة الشر والعدوان والتوسع والسيطرة، أم كان سيفًا ينتصر للحق وللدفاع عن الأرض والعرض..؟

على أنه مما يشرف القائد، ويتوج صفاته وخصائصه أن يكون

ناظرًا إلى أبعد من حاضره، أى أن فكره لم يكن مشغولاً بمجرد انتصار فى معركة أو تحقيق هدف فى ظل قيادته وعلى مدى عمره.. وإنما قد امتد فكره إلى ما يكون عليه حال بلده وجيشه بعد انتهاء عهده بالقيادة، أو انتهاء حياته.. أى كيف يترك جيشه وبلده من بعده ؟

إذن، فليس الفخر أو الخلد أن يكون القائد شجاعًا قديرًا لا يشق له غبار، ولا تقف فى طريقه عقبة، ولكن وحشًا ضاريًا والغا فى سفك الدماء، وقبض الأرواح وبناء أهرامات من جماجم خصومه، فهو يقتل ويخرب ويدمر ويسبى.. ويقول عنه التاريخ إنه كان قائدًا جبارًا، خاض المعارك وفتح الممالك، وتسمى باسم القائد الأعظم أو قاهر العالم.. ثم تنتهى بانتهاء حياته هذه المملكة العظمى ويعود شعبه للاضطراب والفوضى والهوان.

إنما الفخر والخلد للقائد الذى تخلّق بالإيمان والوطنية، ولم يرفع سيفه إلا للحق والدفاع والاتقاء.. وقد أعد جيشه لحماية بلاده والذود عن حياضها، وهو ينظر للمستقبل بإعداد القادة الفرعيين وتشجيع الضباط الشبان على التقدم ودعم أداة الجيش، لترسية خطط التنمية والتطور.. حتى إذا انتهى دوره، استمر الجيش على طريق القوة والعلياء فى ظلال مبادئ الجندية الشريفة، ووفق متطلبات الدفاع عن الوطن.

وإذا ما سلمنا مع حكم التاريخ بصفات وخصائص القائد محمد

ﷺ الذى أنشأ الجيش ووضع له مبادئه وأحكامه وتقاليده، ثم جعل للجيش دورًا محددًا هو الدفاع والاتقاء والردع، حتى استطاع فى زمن قيادته أن يحرك طلائع المسلمين فى شتى مسالك الجزيرة العربية، فهزموا المشركين، وقهروا اليهود وقضوا على المرتدين، ورفعوا راية الإسلام على الجزيرة العربية، بشيرة بالحرية والعدالة والسلام.

لم يكن المسلمون دعاة حرب ولا هواة عدوان وقهر، وإنما دعاهم إلى الحرب عدوان المعتدين، وخيلاء الظالمين المتجبرين فلم يشهروا سيفًا، ولم يسفكوا دمًا إلا ردًّا لاعتداء، أو توقيًا لتآمر، أو ردعًا لاستعدادات العدو الوالغ فى الإيذاء والعدوان.

هكذا حدد «محمد القائد» مشروعية الحرب.. لم يبدأ المسلمون الحرب راغبين، ولكن أقدموا عليها مرغمين، فهم لم يسرعوا إلى القتال ابتداء، ولم يشنوا الهجوم عدوانًا، ولم يقدموا على الحرب إلا اتقاء لمكيدة، أو دفعاً لعدوان.

وقد كان «محمد القائد» يتوق إلى ترسية السلم وإقرار الحق ونشر العدل، حتى يعيش الناس فى صفو وخير وتعاون، وقد علم قواده وجنوده ما كان يوحى به إليه، فلم يلجأ المجاهدون إلى رد العدوان قبل أن يؤذن لهم ولم يشرعوا فى هجوم قط، إلا إذا جاءهم خبر العدو الذى يبيت بليل، ويستعدى القبائل ويحشد القوات ولم يعد عن الخروج إليهم سبيل، عملاً بقوله تعالى:

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط

الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾

﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء
إن الله لا يحب الخائنين﴾

ثم إن القائد علم قواده ورجاله أن الحرب تقتضي الشجاعة والإقدام والمعرفة والتحوط، ثم إن الحرب تحتاج إلى صبر وجلد وتحمل، وإن النصر رهن بالصبر والحيلة والثبات.. وأنه لا بد من إعداد النفس لتحمل شرور الحرب وويلاتها تنبهًا لقوله تعالى:

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين
خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى
يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن
نصر الله قريب﴾

وقد أعطى القائد محمد ﷺ لجنوده المثل الأعلى، فكان يعيش عيشتهم، ويجاهد جهادهم، كأنه واحد منهم، فإذا ما احتدمت المعركة وجدوه فى مركز الخطر يقاتل ببسالة، ويتحمل بجلد ويصاب وجهه ويسيل دمه، ويتعرض للقتل ويقدم على التضحية.

وهو حين يرجوه صاحباه وشريكاه فى الناقة أن يستمر راكبًا وهما يمشيان إعفاء له من الاعتقاب وتكريمًا لمكانته، فإنه يقول لهما:

«ما أنتما أقوى منى على المشى، وما أنا بأغنى
منكما عن الأجر»

وهو يدرب جيشه على إبداء الرأى، ويدع قواده يناقشونه

ويحاورونه عند وضع الخطة وقبل إصدار القرار، فإذا رأى أحد قواده رأيًا سليمًا، فإنه يأخذ به ولو كان يختلف مع تصوره للموقف. وبذلك فإن جيش المسلمين فى رعاية محمد ﷺ كان جيشًا من الأحرار المجاهدين بأنفسهم وأموالهم، والموقنين بحقهم وعدالة نضالهم، وبراءة أغراضهم من الشر والقهر والاستيلاء والتحكم.

كما وضع القائد لجيشه دستور حرب غير مكتوب، ولكن كان كل مجاهد فى جيش محمد ﷺ يعلم جيدًا أنه يحارب لغرض شريف، وأنه سوف يلاقى الظهور أو الشهادة وأنه يعمل بروح إنسانية، فلا يرفع سيفه على امرأة، ولا يقبل أن يثخن فى القتل، ولا يرتضى أن يقتل أو يذل أسيرًا.. فقد علمه قائده أن يكون إنسانًا، وقد أدرك حكمة قوله وهو ينظر إلى الأسرى فى إشفاق وتأسى: «استوصوا بهم خيرًا»

هكذا علم القائد محمد جنود الإسلام كيف يستعدون للقتال، وما هو هدفهم، وما هى المبادئ والأخلاقيات التى ينبغى أن يتحلى بها المجاهدون، وقد عرفوا منه وأخذوا عنه أزهى خلاصة للعسكرية فى أروع صورها، وأعظم أهدافها، وأرسخ تقاليدها، منذ ذلك الماضى السحيق، فلم تأت العسكرية العصرية بجديد فى مفهوم القيادة

وصفات وميزات القائد العظيم

قد كان القائد محمد ﷺ مثلما كان نبى الله، على خلق عظيم، ومثلما أتم رسالته التى خصه بها الخالق الأعظم، فإنه أرسى أساس

جيش المسلمين، فدانت له شبه الجزيرة العربية، وتخرج فيه مجموعة من القواد الشبان الميامين، الذين كانت شجاعتهم مضرب الأمثال وكفاءتهم تضاهى أعظم القادة فى جميع العصور.

كان حول القائد أبو بكر وعمر، وعلى، وسعد، والزبير وعمرو، وأبو عبيدة، الذين كانوا خير ضمان بعد حياته الشريفة على مستقبل الدعوة ومستقبل جيش المسلمين.

وكان آخر عمل عسكرى فى عهد القائد محمد ﷺ هو إعداد جيش لوقف الروم عند حدودهم، بعد ما تناهى إليه من تآمرهم وعدوانهم واستهانتهم بالدعوة، وتجهزهم للانقضاض على قاعدة الإسلام، وكان آخر ما أشار به قبل أن يدركه الموت:

«انفذوا بعث أسامة»

وكان أسامة بن زيد بن حارثة شابًّا فى السابعة عشرة من عمره، ومن الشباب الوثاب فى قيادة محمد، الذين تمرسوا بالحرب واشتركوا فى وضع الخطط وخرجوا فى بعوث الاستخبار والتقصى.

ولقد كان أسامة خليقًا بالقيادة، كما كان أبوه زيد بن حارثة خليقًا بها - وهو الذى استشهد فى غزوة مؤتة - وقد أراد القائد محمد ﷺ أن يجعل لأسامة من فخار النصر ما يجزى به استشهاد والده، فاستدعاه وولاه القيادة وزوده بتعليماته ونصائحه.

وقد كان أول ما فعله أبو بكر - فور أن تمت بيعته - إنفاذ بعث أسامة.

اتخذ القرار وهو يعلم بأن الظروف قد اضطربت على إثر وفاة النبى القائد، وأن خطر الردة شديد،وأن هناك معارضة لتسيير الجيش فى تلك الظروف وبتلك القيادة، ولكن أبا بكر حسم الموقف وأصدر القرار وأعلن على الناس.

«ليتم بعث أسامة. ألا لا يبقين بالمدينة أحد من
جند أسامة إلا خرج إلى عسكره»

وهكذا تكون القيادة العليا التى خلفها الرسول القائد:

دراسة الموقف - تجهيز الجيش - تعيين القائد - وضع الخطة - إصدار القرار.

وقد أعطى أبو بكر القدوة الحسنة للقائد الأعلى فى ظروف عصره وأحداث زمنه، إذ خرج يودع جيش أسامة وهو ماش على رجليه وأسامة راكبًا.. لكى يزيدهم لإمارة أسامة إذعانًا وترحيبًا.. وقد رجاه أسامة أن يركب فلم يقبل، ورجاه أن يسمح له بالنزول من فوق دابته، فقال أبو بكر، قاطعًا وحاسمًا وحكيمًا:

«والله لا تنزل ولا أركب»

وهذا أعلى نموذج لاحترام القيادة وإعلاء شأن القادة. ثم ماذا قال أبو بكر فى توديع جيش أسامة. وهل لمثل ما قاله نظير فى أعظم الجيوش وأعلى مراتب القيادة فى جميع العصور؟.

«لا تخونوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه،

ولا تقطعوا شجرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكله»

واتجه خليفة رسول الله وقائد المسلمين فقال لأسامة:

«اصنع ما أمرك به نبى الله ﷺ»

«ابدأ ببلاد قضاعة، ثم ائت آبل»

«ولا تقصرن فى شيء من أمر رسول الله»

«ولا تعجلن لما خلفت عن عهده.»

ترى.. هل كان الصديق صاحب رسول الله وخليفته من بعده رجلًا عظيمًا فى زمنه وحده. وهل كان يعى أمور القيادة بمقياس العهد الذى عاشه؟

لعلى أقدم دليلًا جاء فى قول عصرى:

«إن مهمة رئيس الدولة - القائد الأعلى للقوات المسلحة - هى اختيار قادة أكفاء، وإعطاؤهم التوجيه السياسى والاستراتيجى اللازم.. ثم ترك الحرب لهم»

هذا الرأى الحصيف - نتاج الخبرة والدراسة فى تاريخ الحرب والقيادة، أدلى به فى سنة ١٩٧٠ الفيلد مارشال مونتجمرى قائد معركة العلمين الشهيرة فى الحرب العالمية الثانية.

وهذا الرأى - الذى يمثل أزهى وأصح وأحدث ما وصل إليه الفكر السياسى والعسكرى فى تحديد التبعات والمسئوليات كان يعمل به - قبل أربعة عشر قرنًا - أمير المؤمنين أبو بكر الصديق.. ولعلِ الأمثلة التى قدمناها عنه - بل التى بدأ بها مسئولية القيادة

العليا تثبت - بلا مراء - أنه كان على دراية وافرة، وأنه كان سابق زمنه.

ولقد سبق الصديق أبو بكر ، كبار المؤرخين والقادة إلى الحقيقة الكبرى: إن العلة فى القيادة.

.. ثم جاء بعده بمئات السنين نابليون بونابرت يقول:

«لا يوجد عسكرى ردىء، و إنما ضابط ردىء».

إن أبا بكر كان سابق زمنه بحق فى فهم أصول القيادة ومبادئ الحرب وتبعات القيادة العامة، وحدود المسئوليات ومواقع المراجعة ومواقع المشاركة، ومواسع اتخاذ القرارات.. وقد كان بإيمانه وعقله وخلقه نموذجًا للقائد الأعلى، يصلح لكل الأمم ولجميع العصور.

استمر جيش القائد «محمد» بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى - جيشًا له نظامه ومبادئه وميزاته، وقد خطا فى عهد الخليفة أبى بكر الصديق، عدة خطوات مباركة لوقف أعمال العدوان على ثرى الأرض العربية، وردع أسباب الردة وعوامل الفتنة وتأمين الحدود.

وفى عهده برز عدد من القادة الشبان البواسل، وفى مقدمتهم خالد بن الوليد، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، وعمرو بن العاص، والزبير بن العوام.

ثم جاء بعده عمر بن الخطاب أميرًا للمؤمنين ملء إهابه العدل والنزاهة وقوة الشكيمة فاستقرت أمور المسلمين، واهتزت عروش الطامعين والمعتدين.

فى عهد عمر استطاع جيش المسلمين، وأد تخرصات وعدوان ومظالم حكام العراق والشام ومصر، والقضاء على غلواء وسيطرة أعظم إمبراطوريتين فى زمنه.

وقد كانت الظروف التى آلت فيها مقاليد جيش المسلمين للخليفة القائد عمر بن الخطاب، ظروف حرب صعبة المراس متعددة الساحات، وكانت قوات المجاهدين حين قُبض أبو بكر تحاول دون جدوى فتح طريقها إلى المدائن ودمشق، وقد توقفت فى مواجهة الجيوش الكثيفة التى تصادمها فى بطاح فارس وعلى ثرى الشام.

ولم يكن الموقف جديدًا على الفاروق عمر، لأنه كان المساعد الأول للخليفة الصديق، ولكن تبعات المسئولية المباشرة انتقلت إليه، فأثقلت كاهله وهزت وجدانه، يوم توليه إمارة المسلمين، فحمل العبء الجسيم، ونهض بالرسالة الجليلة فى إيمان وإصرار وعزم وشدة.. وبفضل صفاته الكريمة - وخاصة صفة الصلابة أو الشدة - نجحت قيادته واستطاعت الجيوش الإسلامية فى عهد خلافته أن ترسم خريطة الوطن العربى والأمة الإسلامية فى ظل حضارة وثقافة وعلم وعدل ورخاء.

كذلك لم يكن عمر حين ولى الخلافة جديدًا على الجيش والحرب وخصائص القيادة، لأنه كان من القادة المبرزين الذين نشئوا فى كنف القائد محمد، وقد عهد إليه بعمليات رئيسية فى كثير من

البعوث والسرايا.

وتظهر قيمة عمر العسكرية من شهادة الخليفة الصديق، إذ قال فى مرض وفاته:

«وودت أنى كنت إذا وليت خالد بن الوليد إلى الشام، ووجهت عمر بن الخطاب إلى العراق فكنت قد بسطت يدى كلتيهما فى سبيل الله»

وقد تميز القائد عمر بصفات وميزات القادة العظام، وفى مقدمتها الحصافة والصلابة والتؤدة، وكان قوى الملاحظة، شديد الفراسة، بارز الشخصية عادلاً حكيمًا.

عندما رشح له سليط بن قيس لتولى قيادة أحد الجيوش.

قال: لم يمنعنى أن أؤمر سليطًا إلا سرعته إلى الحرب، والسرعة إلى الحرب ضياع إلا عن بيان، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث»

وقد عاود ترسية هذا الرأى فى وصيته لأبى عبيدة:

«لا تجتهد مسرعًا حتى تتبين فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكيف»

وكان الخليفة عمر يقدر عمرو بن العاص، ويعرف فيه الذكاء والحيلة، ولكنه كان يعرف فيه حبه للإمارة، وتعجله فى ذلك.. فلما سعى عمرو إليه ليزكيه لقيادة الجيش بدلاً من أبى عبيدة، فإنه

واجهه بصراحة قاسية لا غنى عنها للقائد المسئول:

«ويحك يا عمروا إنك لتحب الإمارة..

وأبو عبيدة أفضل منزلة عندنا»!؟

وقد اشتهر عمر بصفة الصلابة أو الشدة، والغريب أنه بعد مئات السنين فإن المارشال ويفل - أحد قادة الحرب العالمية الثانية - يقول: «إذا بحثنا فى أسباب إخفاق عدد كبير من القادة، فإننا سنجد فى المقدمة الافتقار إلى صفة الصلابة أى القدرة على تحمل مسئوليات الحرب ومفاجآتها»

وقد كان عمر قوى الشكيمة حتى قال عنه رسول الله:

«إن الشيطان ليخاف منك يا عمر»

وكان القائد عمر ينظر فى الموقف العام ولا يتدخل فى تفاصيل أعمال القائد الفعلى فى الميدان، وفى هذا كتب لأبى عبيدة:

«أنت الشاهد وأنا الغائب، والشاهد يرى
ما لايراه الغائب وأنت بحضرة عدوك وعيونك
يأتونك بالأخبار، فإن رأيت الدخول إلى الدروب
صوابًا فابعث إليهم السرايا، وادخل معهم بلادهم
وضيق عليهم مسالكهم. وإن طلبوا الصلح فصالحهم»

وقد حققت لهذا الخليفة العظيم والقائد الفطن، شهادة الرسول القائد:

«لم أر عبقريًّا يفرى فريه»

وقد برز فى تاريخ الحروب الإسلامية خالد بن الوليد. قال عنه الرسول القائد: «سيف من سيوف الله سلّه على المشركين»

وقال عنه الخليفة أبو بكر: «لقد عقمت النساء أن يلدن مثل خالد»

وقال عنه الخليفة عمر: «رحم الله أبا بكر كان أعلم بالرجال منى»

هو خالد بن الوليد، فتى بنى مخزوم الذى نشأ فى الجاهلية وحارب المسلمين بجسارة - وخاصة فى موقعة أحد - ثم أضاء الله قلبه بالإسلام فى ريعان شبابه فصار سيفاً من سيوف الله دانت له قيادة الجيوش فأبدى من البراعة فى وضع الخطط والشجاعة فى تنفيذها ما رفعه إلى مصاف القادة العظام.

وقد حارب خالد أعداء المسلمين فى خمس عشرة وقعة، لم يهزم ولم يخفق تدبيره قط فى واحدة منها. وكان يسير بجيشه دائماً على تعبئة كاملة فيقاتل عدوه، حيث لقيه مفاجئاً أو غير مفاجئ، وكان كما وصفه القائد الفطن عمرو بن العاص «له أناة القطاة ووثبة الأسد» فلا يهمل الحيطة، ولا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم والحيلة، وكان يعمل بمبادئ الحرب قبل أن يكشف عنها نابليون، ويعلنها بعد أن نفذها خالد بمئات السنين.

وبلغ خالد فى معركة اليرموك قمة القيادة العليا فى أسمى معانيها ومتطلباتها: قمع فتنة الردة، وهزم دولة الأكاسرة، وسحق قوة الروم.

وهو قائد لم تعزه قط صفة من صفات العظام فقد كان مفطورًا على النضال موسومًا بالشجاعة والنشاط والتحمل وحضور البديهة اليقظة وسرعة الملاحظة وقوة التأثير.

وإذا ما ذكرت أسماء القادة العظام فى عهود المدنية الحديثة، فلنرجع إلى تاريخ الحروب الإسلامية لنجد أن خالد بن الوليد هو أحد عظماء القادة الأفذاذ على التاريخ كله.

ومن قادة الجيوش الإسلامية التى تنطبق عليهم صفات وخصائص القائد العظيم: أبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وعمرو بن العاص، والزبير بن العوام.. وهم الذين قادوا الجيوش الإسلامية وحرروا من الظلم والطغيان شعوب الشام والعراق ومصر.

كان الرسول القائد يصف أبا عبيدة بأنه «القوى الأمين». ويقول: «أبو عبيدة أمين هذه الأمة» وقد اعتذر هذا الجندى الباسل عن إمارة المؤمنين عند ما بايعه عمر بن الخطاب وارتضاه أبو بكر، وقال أبو عبيدة: يا أبا بكر أنت أفضل المهاجرين، وثانى اثنين إذ هما فى الغار وخليفة رسول الله على الصلاة، فمن ذا يبغى أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك» وحسم أبو عبيدة الموقف بمبايعة أبى بكر وتبعه الآخرون.

ولأبى عبيدة قول يميزه بمعرفة قدر نفسه وإدراكه لمسئولياته:

«ما سلطان الدنيا أريد وما للدنيا أعمل»

وهو - كقائد جيش - لم ينظر إلى القيادة كغنيمة أو كسب أو جاه أو شهرة وعندما قضى هذا القائد الباسل لم يجدوا فى داره سوى أدوات الحرب وقطع خبز جافة، فبكى عمر بن الخطاب وقال:

«لقد غيرتنا الدنيا جميعًا إلا أبا عبيدة»

إن أبا عبيدة كان نموذجًا عاليًا للقائد النزيه الذى وهب نفسه للدعوة وللجهاد، ولم يأخذ لنفسه شيئًا.

ومن القادة العظام الذين رعاهم «القائد محمد»، وجعلهم حفظة القيادة من بعده: سعد بن أبى وقاص.

عندما استشار عمر بن الخطاب أهل الرأى فيمن يوليه حرب الفرس أشاروا عليه بسعد، وقالوا عنه: «إنه الأسد عاديًا»، فأعطاه راية الجيوش الإسلامية فى تلك الحرب الفاصلة.

كانت صناعته رمى النبل فلا يخطئ الرمى، ولا يرمى إلا فى الصدر، وكان الرسول القائد ﷺ يوم أحد يناديه: ارم أيها الغلام الحزور - أى المصيب - ورمى يومها ألف سهم.

وكان سعد يقول: «إنى لأول العرب رمى بسهم فى سبيل الله. والله إنا كنا نغزو مع رسول الله ما لنا طعام إلا التمر وورق الحلبة»!

وقد اشتهر عمرو بشدة الثبات - وقد كان بين الثابتين مع النبى ﷺ عندما دارت الدائرة على المسلمين فى غزوة أحد، وكان من المتميزين بالزكانة والفطانة فى أعمال الاستخبار.

عندما ولى سعد قيادة حرب العراق فقد وردته رسالة عمر بن الخطاب: « يا سعد: عليك الثبات عند الشدائد والتجلد فى المكاره، فاصبر وصابر، والله مع الصابرين».

وكان سعد عند حسن الظن به جنديًا باسلًا منتصرًا.

كذلك كان عمرو بن العاص من القادة الأفذاذ الذين نشئوا فى جوار «القائد محمد» بعد اشتراكه فى عدة معارك ضد المسلمين، وقد جمع بين حنكة السياسة وبسالة الجندية. وقد ولاه الرسول القائد لواء غزوة ذات السلاسل على رأس ثلاثمائة محارب، فكان يمشى بقواته فى الليل ويختفى بالنهار ويقوم بالعمليات الليلية والهجوم المفاجئ، ويطبق مبادئ الحرب قبل أن يعرفها القادة العصريون بمئات السنين.. وقد اشتهر باسم «داهية العرب»..

ولعله من أعظم أعمال عمرو بن العاص وأبقاها على الزمن، هو فتح مصر، وقد كان فى فكره ووفق عزيمته فولاه عمر قيادة الجيش، فأبدى من الفطانة والهمة والبراعة فى القيادة، ما أهله لأعظم الأعمال العسكرية فى زمنه، بضم مصر إلى جامعة الأمم الإسلامية.

وعندما كان عمرو يقطع الفيافى والقفار، فإنه وقف على أبواب مصر وطلب من الخليفة مددًا حتى يقوى على الموقف، ويتجنب العثار فى عملية جسيمة ومسئولية من أكبر المسئوليات التى عهد بها إلى قائد.. فأرسل إليه عمر مددًا من ألف رجل وفيهم الزبير بن العوام، وقال عمر عن الزبير.. إنه «رجل بألف رجل».. وهذا هو مستوى

القادة العرب الذين ينبغى أن نراجع صفحاتهم الخالدة على مر التاريخ.

وأخيرًا.. ماذا يمكن أن يقال فى «القائد محمد بن عبد الله ﷺ».. وأمامنا تاريخه الحربى بأسمى صفات الجندية وأعلى خصائص القادة العظام، وأنه هو الذى وضع حجر الأساس فى بناء الجيش الإسلامى وإرساء مبادئه وتنشئة قادته، وتأمين مستقبله فهو لم يكن ينظر لحاضره وحسب، وإنما امتدت نظرته الكريمة إلى ما بعد عهد قيادته وما بعد حياته الكريمة.. وهذا هو شأن القائد العظيم المسئول إلى جانب رسالته الكبرى التى اختارته لها العناية الإلهية آخر الأنبياء وخاتم الرسل الكرام.

المـراجع

١ - القرآن الكريم

٢ - الأحاديث النبوية الشريفة

٣ - سيرة سيدنا محمد رسول الله — لأبي محمد بن عبد الملك بن هشام

٤ - تاريخ ابن خلدون — عبد الرحمن بن محمد بن خلدون

٥ - نهاية الأرب فى فنون الأدب — شهاب الدين النويرى

٦ - عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير — فتح الله بن سيد الناس

٧ - عيون الأخبار — ابن قتيبة

٨ - حياة محمد — دكتور محمد حسين هيكل

٩ - عبقرية محمد — عباس محمود العقاد.

١٠ - القيادة والقادة العظام — للمؤلف

الفهرس

رقم الإيداع		١٩٨٦ / ٣٩٦٨
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٧٠٩-٣	ISBN

١ / ٨٥ / ٢٤٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .

ص
٦٠